اقرأ

أمين الريحاني

سجل التوبة

دار المعارف بمصر



جنرال الكتريك
U.S.A.
ثلاجات منزلية وتجارية
أجهزة تكييف الهواء
أجهزة تبريد
أعمال الإضاءة الحديثة
مبردات للمياه
أدوات كهربائية منزلية
اشتر الأفضل ..
جنرال الكتريك
U.S.A.
٢٬٧٠٠٬٠٠٠
ثلاجة جنرال الكتريك تستعمل
بنجاح منذ عشر سنوات تقريبا

سجل التوبة

أمين الريحاني

سجلّ التوبة

اقرأ ١٠٦
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١٠٦ — نوفبر سنة ١٩٥١



شريف أفندى

شاهدته على الرصيف وهو يقصد إلى إحدى شركات البواخر ليبتاع تذكرة للسفر إلى مصر . وكدت أنكره مع أنى اجتمعت به مراراً بباريس . إلا أنه كان يلبس الطربوش هناك ، وقد اعتاض الآن عنه ببرنيطة من الجوخ اللين شدها فوق حاجبيه ، وأخفى ناظريه بنظارات زرقاء كبيرة حتى كاد يبدو مقنعاً ، ولكن عذوبة الصوت التى يمتاز بها أشراف الترك نمت عليه .

كان اجتماعنا الأخير منذ عام بباريس . وقد جلسنا حول مائدة فى قهوة « يدش » نتحدث عن الانقلاب العثمانى فشيدنا دولا من الخيال ، وبنينا قصوراً فى الهواء . وكان هو يشرح نظرياته منفعلا ! وقد أناط كبير آماله بالثورة ، فاتخذ منها الأساس لأمة تركية جديدة ، شديدة البأس ، حديثة الأسباب فى المدنية والعمران لها من سالف مجدها ونشاط أبنائها اليوم ، ما يمكنها من استرجاع منزلتها الرفيعة بين الأمم العظيمة الراقية .

وقد أطلعنى يومئذ على برقية جاءته من بعض أصحابه فى الآستانة يطلبون منه العودة إليها . فغادر عاصمة الفرنسيس ميمماً عاصمة بلاده ، وقاعدة مجد أجداده . وقلد بُعيد وصوله وظيفة عالية فى الدولة فبرهن فيها على صدق الوطنية والاعتدال . إلا أن أعماله ذهبت سدى لأن جنود دول البلقان كانت يومئذ على أبواب الآستانة ، وكان الخلل مستعصياً فى العاصمة بل كانت الفوضى ضاربة فيها أطنابها فاستقال وعاد إلى بلاد الغربة وهو لا يزال يرجو الخير من نهضة الاتحاديين .

وها هوذا فى الآستانة ثانية . وكأنى به قد أعاد الكرة فى سبيل أحلامه الوطنية فأخفق ثانيةً سعيُه ، بل قضى على آماله كلها . فبات واليأس يبارى فى نفسه الاضطراب .

أجل ، قد رد سلامى والاضطراب أظهر ما بدا فى ملامحه . ولو لم يكن فى خطر معجل عليه لما جاء بنفسه إلى « غلطا » ، وقد تنكر بالبرنيطة والنظارات ، وهو مصمم على السفر إلى بلاد بعيدة باسم منتحل .

ولما كان بيننا صلة ولاء عقدناها منذ عام بباريس دعوته لفنجان من القهوة فى إحدى المقاهى الكثيرة على الرصيف ، فأجاب قائلا : « لست بمأمن هنا ، ولأعدائى آذان فى كل مكان ، على أنى أقبل الدعوة ، وأنا مشتاق إليك وإلى حديثك ،

إذا أنت تبعتنى » .

قال هذا ومشى أمامى فى دهليز ضيق مدلهم إلى حانوت فى منعطفاته فوقف هناك مبتسما وقال : « فى هذه المكتبة صديقى الوفى الوحيد فى الآستانة . وسأعرفك إليه » .

دخلنا فإذا نحن فى مكتبة صغيرة لرجل طاعن فى السن ، أبيض اللحية ، أزرق العينين ، ناصع الجبين بادر إلينا مبتهلا حين شاهد مولاه الأمير عز الدين وقد حاول أن يقبل يده فسحبها الأمير معتذراً .

هو شريف أفندى الكتبي المعروف فى « غلطا » والشاعر المعروف فى الآستانة ، يبيع الكتب للارتزاق وينظم الشعر للتفريج . دخل بنا إلى غرفة وراء المكتبة ، فيها ديوان نظيف ، ولها نافذة تشرف على صف من المطاعم الحقيرة التى يكثر فيها الشواء والتى يؤمها طائفة من العمال فى حى غلطا كل ظهر وكل مساء .

ومن تلك المطاعم مطعم قريب من الغرفة التى نحن فيها ، فتخال نفسك فيه من روائح شواء تتنشقها ، ومن أحاديث حول الموائد تسمعها . وقد لفت نظرى ، بين جماعة هناك ، رجل أنيق البزة ، بهى الطلعة ، يستغرب وجوده فى ذاك المكان . وقد كان جالساً إلى مائدة قريبة من الشباك المطل على الغرفة التى نحن فيها .

وما كان شريف أفندى بمبطئٍ فى «التشريفات» ، فما كدنا نخرج من مقدمات الحديث ، بعد جلوسنا على الديوان حتى أظلمت النافذة، وإذا هناك خارجها رجل أسود عمليق يحمل النرجيلة بإحدى يديه والقهوة باليد الأخرى ، فتناولهما شريف أفندى من النافذة ، وقدم النارجيلة للأمير ثم القهوة له ولى . أما القهوة فأحسن ما شربت فى الشرق . وأما النارجيلة فكأنها من أحد قصور آل عثمان ، لا من مقهاية من مقاهى غلطا المشرشرة . وهاكم الأمر العجيب فى ما يتعلق «بكيف الأتراك» فنارجيلة العامل ونارجيلة الأمير واحدة . وقلما يتغير فى القهوة غير الفنجان إن كان فى غلطا أو فى بيرا .

قال الأمير بعد افتتاح الحديث : هى مشيئة الله ، أنا اليوم راحل ، وسيرحل غداً البادشاه . نعم ، كلنا راحلون عاجلا أو آجلا . . . تركيا الجديدة ؟ تركيا الفتاة ؟ هو حلم لا يقظة بعده . ولماذا ؟ لأنه حلم حلمه السيف لا العقل والحكمة .

فتطرق إلى أولى الأمر فى الآستانة خصوصاً ، زعماء الاتحاديين ، وشرع يفند أغلاطهم ، وينتقد أعمالهم إلى أن قال : وليس فى من فوقهم الكفاية ولا أمل إلا فى من دونهم — فى الشعب . نعم يا صاح . إن نوابغ الرجال فى تاريخ الأمم نشأوا من الطبقة الثالثة — من الحضيض . نبغوا فى من حملوا

أعباء الظلم قروناً من الزمن . وسيقوم فى بلادنا أناس من هذه الطبقة التى كانت مستعبدة ـ سينقذ الأمة نوابغ من أبنائها العامة ، لا من الخاصة ـ لا من الأعيان ـ ولا من الطبقة الوسطى . أما نحن أعيان الترك فإثمنا على رؤوسنا . وليس فى رؤوسنا القوة والحكمة لإنقاذ الأمة .

وبينما كان الأمير يتكلم كان شريف أفندى مصغياً كل الإصغاء وهو يمشط بأنامله لحيته البيضاء . ويهز برأسه مؤمناً مستحسناً . إلا أنه ، وقد حانت منه التفاتة ، رأى فى النافذة ما أدهشه ـ رأى أن الرجل الأنيق البزة ، البهى الطلعة ، الذى كان يتناول الطعام إلى المائدة القريبة من غرفتنا ، قد مال بأذنه إلى الحديث يلتقط ما وصل منه إليه . فنهض شريف أفندى فى الحال وهمس كلمة فى أذن الأمير عز الدين ، فتوقف عن الكلام وقام يودعنى معتذراً .

خرج من المكتبة مسرعاً وخرج شريف أفندى معه بعد أن سألنى أن أبقى فى المكتبة وقال إنه سيعود فى الحال .

أعجب لهؤلاء الشرقيين الذين لا ينسون الواجبات ، ولا يتنازلون عن المجاملات ، حتى فى أشد الأوقات عسراً ، وفى أقرب الساعات خطراً .

خرج شريف أفندى يشيع سيده الأمير ، وعاد بعد قليل

يصحبه رجل آخر . جلس مكان الأمير وتناول النارجيلة فشرع يدخن ، دون مقدمة ودون سلام ، وهو هادئ البال مطمئن . ثم نظر إلىّ نظر الجليس الأليف وقال يستأنف الحديث :

هذا ما يقوله أعداؤنا يا أفندى . هذه هى التهم التى يتهمون بها زعماءنا كبار الاتحاديين. وطفق يدافع عن الحكومة الاتحادية وعن الجمعية. فقطع شريف أفندى الحديث عليه قائلا بصوت عال ليسمع الجاسوس فى الخارج ، فى ذلك المطعم :

— هى الحقيقة بعينها . وقد أصاب جواد بك . إى والله ، أصاب كبد الحقيقة .

أدهشنى وحيرنى هذا الانقلاب فى جلستنا وما اهتديت إلى كلمة أقولها لشدة استغرابى بما رأيت وبما سمعت .

استطرد الرجل الكلام مدافعاً عن الاتحاديين مطرياً سياستهم ، وشريف أفندى يؤمن له بـ « إى والله ، وتمام تمام » حتى ظهر فى الباب ثلاثة رجال : شرطيان ورجل فى ثوب مدنى . دخل الرجل وبقى الشرطيان عند الباب وكان جواد بك مستمراً فى حديثه كأنه لم ير أحداً .

وعندما بادر شريف أفندى إلى استقبال الرجل وقف جواد بك ووقفت ، فلم يكترث الداخل علينا بل أجال فى الغرفة

الصغيرة نظره وسأل شريف أفندى قائلا :

ــ أين الأمير عز الدين ؟

فقال شريف أفندى : أعرف الأمير عز الدين بالاسم ، ولكنى لم أره قط فى حياتى .

البوليس السرى : بل كان هنا منذ دقائق قليلة .

ــ والنبى ، ما كان هنا . وهؤلاء الأفاضل يشهدون على ما أقول .

ــ عار على مثلك ، وهو قريب من يوم الحساب ، أن يقسم بالنبى كاذباً .

ــ بل عار على مثلك أن يهين مثلى . اسمع يا أفندى وثق بما أقول . لم يدخل الأمير عز الدين هذه المكتبة قط . وماذا عساه يريد هنا . ما الذى يجىء به إلى مثل هذا المكان الحقير بغلطا ؟ لم أر الأمير . أقسم بالنبى ثانية وعساك أن تحترم يمينى .

وفى تلك الآونة دخل الرجل الأنيق البزة البهى الطلعة الذى رآه شريف أفندى فى المطعم المجاور لمكتبته وقال :

ــ أولا تعرفنى أنا يا شريف أفندى ؟

ــ ومن لا يعرف سموك يا مولاى ؟ رأيتك مرة تجتاز بعربتك الجسر فسألت الله أن يعزك ويحميك وقلت فى نفسى : هوذا زين الأمراء . أما الآن فماذا عسانى أقول وقد رأيتك فى هذا

المطعم تتناول الطعام مع الرعاع ؟ فقد طار قلبي جزعاً . . .
وقد تكون سمعت جواد بك يقص على الأفندى قصة أعداء الاتحاديين ويدحض حججهم . مدافعاً عن الحزب وعن الحكومة . ولا ريب أنك ، وقد سمعت ذلك . تشهد أمام هذا الرجل . . .

فقطع الأمير الحديث عليه قائلا : ظننت أنى سمعت صوت أخى لا صوت سواه .

وخرج كما دخل دون أن يسلم على أحد . فتبعه البوليس السرى والشرطيان .

فتنفست الصعداء وحمدت الله . وخرج جواد بك كما دخل هادئ البال مطمئناً ، دون أن يقول كلمة واحدة فى الدور الذى مثله ذلك التمثيل المحكم . أما شريف أفندى فجلس على الديوان يمشط لحيته بأنامله . ويبتسم ابتسامة السخرية والازدراء ، ثم قال كأنه يخاطب نفسه :

ـ الأخ على أخيه ، والابن على أبيه . هذى هى ثمارك أيتها الحكومة الاتحادية ، وهذا هو خيرك أيها الدستور !

ثم نظر إلىّ فقال بلهجة العطف والاعتذار :

وكيف أخلص مولاى الأمير ؟ ألا يجوز الكذب يا أفندى فى مثل هذه الحال ؟ إنى أفدى مولاى وأعز الناس إلىّ

بدمى ، فكيف لا أخلصه بلسانى ، وبحيلة لا تضر أحداً ؟ أما الآن فعلىّ بخلاص نفسى . سيعود هؤلاء الذئاب ، سيعودون ولا شك ليفترسونى . سيفتشون مكتبى ، سيحجزون أوراقى .

قال هذا وبادر إلى خزانة فيها أوراق عزيزة جداً لديه . كيف لا وفى تلك الصفحات نبضات قلبه ولآلىء دموعه وأنين حبه ، وصيحات إخلاصه لوطنه وزماجر نقمته . هى قصائده. تناولها بيديه ومسح بها عينيه ثم قبلها قبلة الوداع ، وأشعلها بعود من الكبريت قائلا :

كما تلتهمك النار الآن لتلتهم نار الجحيم أعداء أمتى أجمعين .

نبوخذنصّر

حكى أن نبوخذنصر ملك بابل كان ذات يوم يتمشى في جنينة القصر وعدوّه الأكبر ، ذلك الذى يدعى فى لغات الناس الغضب . فالغضب ونبوخذنصر وحدهما وطئا تلك الليلة ثرى البستان . مثّلْ لنفسك الملك العابس فى بستانه الضاحك وقل لى فيما إذا كان مشهد الأضداد لا يثير الشجون . هاك نبوخذنصر بين السنط والنخيل ساكناً متبسلا بل قلقاً مضطرباً يحسب نفحات الورد ناراً ، ونسمات الليل إعصاراً . إن كل شيء فى السماء ساكن ، باهر ، جميل ، وإن كل شيء على الأرض — فى قلب الملك — مظلم ، مضطرب .

والسبب فى ذلك قصة سأقصها عليك حدثت فى بابل قبل الميلاد بنحو سبعمئة سنة .

خرج نبوخذنصر ذات يوم إلى الصيد ، فركب كعادته قارباً فخماً على شاطئ نهر الفرات تصحبه حاشيته وكلابه . وبعد قليل ، بينما كان القارب يمخر مياه ذلك النهر المجيد قديماً الحقير اليوم ، رأى الملك أسداً مضطجعاً على الشاطئ

بين القصب ، فأمر الصيادين بأن يرسلوا عليه الكلاب ، فأفلتت من سلاسلها فسبحت إلى البر . إلى عرين الأسد . وكانت وقعة بين هذه الكلاب وملك الغاب ، ثم رأى الملك الفريسة تجر فى النهر إلى القارب الملكى . جرتها الكلاب المنتصرة ، وقد تركت وراءها أثراً من الدم. وإذا أجيزت لنا المبالغة نقول استحالت المياه دماً من جروح الأسد المأسور . وإذا أذن الشعراء نقول قد تكوّن من دم الأسد بين الأمواج الزرقاء بحيرات من الياقوت المذاب .

كل هذا جميل . وكل هذا يسر الملك فى غير هذا اليوم . أما اليوم فلا شىء فى العالم يبدد غيمة الغضب التى تعلو جبينه . لا شىء فى العالم يعيد إلى صدره الراحة والسكينة .

إن شيئاً صغيراً أغضب نبوخذنصر ، وقلما تغضب الكبائر الملوك . أما إذا غضب نبوخذنصر فليغضب لغضبه الوزراء ، وتضطرب الأمة . . . اللهم عونك ، اللهم سترك . أزل اللهم هواجس مليكنا وهمومه ، واصرف عنا وعنه شر عواقبها . تشاور الوزراء وابتهلت الأمة .

أما نبوخذنصر فلما عاد ذاك اليوم من الصيد دخل غرفته الخصوصية هو وعدوه الغضوب ، ورمى بنفسه على مضطجع فخم مفروش بالطنافس الهندية ، والجلود المرقطة ، وحشايا

الريش والحرير .

وبعد هنيهة جاء الخدم بالطعام فحاولوا فتح شهوته بلذيذ الألوان وأنواعها . وقد وضعت فى أطباق من الفضة على مائدة كبيرة من الرخام .

وها قد جاؤوا بالتين والعنب والليمون ، وبضروب من الحلوى ، يعقبهم الساقى يمسك الختام ، بخمر أرمنى معتق لا ند له فى غير قصر الملك .

جلس نبوخذنصر إلى المائدة والنفس منه فى هواجس تضيع عندها الشهوة للطعام . نظر إلى المائدة نظرة الاشمئزاز . ثم رمق الخمر بنظرة العطف والولاء . فأكل قليلا ، وشرب كثيراً ، ثم انطرح على ديوان النشوة تحت ستار الرقاد .

فهل يا ترى ينقذه النوم من براثن الهواجس والغضب ؟ هلا تشمله وهو نائم تلك السكينة التى تشمل أحقر النيام من العباد؟

خذ الجواب من الخدم والعبيد . اسمعهم وهم يتكلمون . لا راحة له فى اليقظة ولا فى المنام . هوذا فى عالم الأحلام يجهش ويئن . إنها لأحلام مخيفة . تراه يئن منها ويصيح . تراه يرغى ويزبد كأنه على العرش .

نعم ، إن نبوخذنصر لفى عالم الأحلام . وما حلمه ظاهراً بأمر خطير . هو يحلم بشاب فلاح ذبح الفتاة التى أحبها ،

ذبحها لينقذها من ثالث غير كريم .هو يحلم ببالاذان الذى ذبح معشوقته زبيبة لينقذها من الملك نبوخذنصر الذى أمر بأن تكون من نساء القصر ، وبعث بخصيانه ليجيئوا بها إليه.

ولما أفاق نبوخذنصر من رقاده كانت الشمس قد مالت إلى المغيب ، وأذيالها تفيض على الأفق نوراً ذهبياً يوشى الضباب اللازوردى ، ويحيط بالاثنين هنا وهناك خطوط حمراء من النار . فنهض من مضجعه وصعد على أجنحة هواجسه إلى شرفة عالية يطل منها على المدينة — على بابل العظيمة — وما فيها من القصور الشاهقة ، والمعابد الفخمة ، والجنائن المعلقة ، ومن التماثيل والجسور والأبراج.

أطل نبوخذنصر على بابل — على بابله — وهتف قائلا : ومن يتجاسر أن يغيظ سيدك الأكبر ؟

ثم طوق الشرفة بنظرة من نظراته الملتهبة فشاهد هناك الورد والياسمين والفل والمنثور نامية زاهرة فى أفخر الآنية وأجملها . فتنشق من روائحها المنعشة ، ولكنه لم ينتعش . ثم نظر إلى السماء فتجلى له البدر من وراء غيمة فضية الحواشى ، فأنار الأرض وما فيها ، وما أنار وجه الملك .

وكان بالقرب من هذه الشرفة قاعة كبيرة معدة للرقص والطرب ، تجيء الغيد بإشارة من الملك فيرقصن فيها رافلات

بأثواب مهلهلة ، ويضربن على الأعواد والطنابير ، فيحولن القصر إلى جنة لم يحلم بها غير نبى واحد من الأنبياء .

ولكن قلب الملك ذى الليلة فى عالم لايعرف النور والسرور . ولا محل فيه لبابل ، ولقيان بابل . ولجنائن وعرصات بابل . لا محل فيه للقمر ولا مكان فيه لزهرة من الياسمين .

ها كه فى شرفته يحترق من غيظه ، كأنه يقول متسائلا : « متى ينتهى العالم الذى وجدت فيه مكدراً » ؟

وقف يتأمل قباب الهياكل القائمة على أكتاف الثيران . ثم يتأمل الخنادق والخلجان التى يبدو ماؤها كالفضة فى ضوء القمر . وما الفائدة وما الخير فى عمل لا ينسيه ماهو فيه ؟ خيال يمر أمام عينيه فيود لو كانت حقيقته بين يديه . وما رآها غير مرة ، فجاشت ، وما زالت تجيش فى صدره الشهوات .

جدف نبوخذنصر وأقسم بأرباب أشور كلها .

— أتموت هذه الفتاة هرباً من شرف يغشيها ؟ أيقتلها حبيبها لأنى اشتهيتها ؟ ونمرود العظيم !

طرق إذ ذاك أذنه وقع أقدام قريبة . ومن يتجاسر أن يقرب من الملك فى هذه الساعة غير رئيس الوزراء .

هو الوزير الأكبر جاء يكلم مولاه فى أمر عرفت أهميته من

اهتمام الملك له . ولكن بعد أن تكلم الوزير – ازداد نبوخذنصر غضباً فقطب حاجبيه ، ولمع البرق فى ناظريه ، وصرخ قائلا : أيحتقرنى هذا العبد الخسيس ؟ أيتجاسر أن يغار على الفتاة التى أحبها قلبى . ألا تعلم أيها الوزير بأن هذا الشقى أراد أن يفهمنى بأن استحسانى جمال زبيبة هو عار عليها ؟ فكيف إذن تطلب منى أن آمر بقتله ؟ أف عليك يا تفلاط . فى الأمس ارتجفت يد أحد الخصيان وهو يضع على رأسى التاج . فلو أمرت بقتله لكان فى ذلك شىء من العدل . أما هذا الانتقام الذى ينتهى سريعاً بالموت فأى عدل فيه . أتريد أن أريح العبد من حياته المؤلمة ؟ إنك يا تفلاط لشفوق رحيم !

كان تفلاط عالماً بأن بالادان فى السجن ينتظر الموت . وكان عالماً بما لغضب نبوخذنصر من مثل هذه العواقب . فعجب أن الشاب الفلاح لا يزال حياً . ولكنه بعد أن سمع كلام الملك أدرك السبب فزال العجب !

– أنت يا تفلاط داهية فى السياسة . ولكنك راسخ أيضاً فى علمى العقاقير والسموم . فهات إذن طريقة جديدة ننتقم بها من هذا الشقى .

– طريقة جديدة ؟

– نعم يا تفلاط . أنت تعرف أنواع سموم الهند والحبشة

ومادى وغيرها من البلدان. وأنا أريدها لغرض الآن، فإن موت هذا الشاب موتاً بسيطاً لا يعجبنى . لا يعجبنى قطعاً . هو لا يخشى الموت . فقد كان شجاعاً جسوراً فى قتل معشوقته . وهو يظهر الآن شجاعة تذكر فى احتماله لوعة الفراق الأبدى . فماذا يهمه بعد ذلك الموت ؟ لا أسألك أن تعذبه عذاباً جسدياً ، فهو ولا شك يحتمل أشد العذابات . ناهيك بأن العذاب الجسدى لا يقضى به إلا على المجرم الأثيم . وبالادان هذا هو أكبر من الأثيم المجرم فقد جدف على آلهة أشور فى تمرده على مولاه ومليكه . إذن يجب أن يكون بين الذنب والقصاص نسبة فى الهول والفظاعة .

فخضع الوزير قائلا : أمرك يا مولاى. سأباشر العمل إن شاءت الآلهة .

وفى اليوم التالى حل بالادان من قيوده وجىء به إلى مجلس الملك . فدهش الشاب لوجوده فى حضرة نبوخذنصر ملك بابل وأشور، لوجوده حراً . كيف لا وقد جاء ليسمع الحكم بالموت ، فسمع بدله الأمر بالحياة . سمع نبوخذنصر يخاطبه قائلا :

– أنت حر يا بالادان

فبأى دهشة تلقى بالادان هاتين الكلمتين ؟ ! إنه ليصعب

علينا الحكم فيما إذا كان حزنه على معشوقته أعظم من دهشته هذه ، وفيما إذا كان الذنب الذى اقترفه أعظم من حزنه !

وبعد أن قال الملك لبالادان : أنت حر ، وهبه قصراً يسكن فيه ، وأعطاه من الملابس أفخرها ومنحه لقباً عالياً ، ثم جعله من المقربين .

– إنى يا بالادان أكبر الشجاعة وأجل الإخلاص . وقد أظهرت فى حبك لزبيبة منتهى الفضيلتين ، فاخدم مولاك بما أحببت معشوقتك .

ثم قال : ستتناول الطعام معى هذا المساء ، وستجلس إلى يمينى ، وسيقدم لك وزيرى تفلاط الخمر بيده . وذلك منى جزاء وفائك ومروءتك .

ومع أن هذا التعطف الملكى الكبير آثار فى قلوب الوزراء البغض لبالادان والحسد منه ، فقد تكهنوا فى غرض الملك الخفى ، وقالوا بين بعضهم : « سيسمه ولا شك . وقد تفاوض وتفلاط فى هذا الأمر . . . نعم . نعم سيكون لغضب مليكنا نهاية مخيفة مرعبة . لننظر ولنصبر » .

وكان الوزراء من الصابرين ، ولكنهم سُقِط فى أيديهم ، فلا تمت النبؤة ولا تحققت الآمال .

جلس بالادان تلك الايلة إلى المائدة الملكية فأكل وشرب

وقام سالماً . بل هناك ما هو أعجب من ذلك . فقد قربت الإنعامات عليه ، فأصبح ، في اليسير من الأيام ، نديم نبوخذنصر ورفيقه المحبوب. قلت إن هذا الشاب كان فلاحاً حقيراً . وقد كان كذلك يتيما فقيراً ، فتبناه أحد علماء أشور ، ولقنه مبادئ العلوم ، وهذبه فى الفضائل المدنية ، فصار فى مقدمة أولئك الذين يتذوقون الآداب ويتأنقون فى أسباب العيش .

وكان الملك ، بعد أن يعود من الصيد ، يجلس كعادته على المضجع المفروش بالطنافس الهندية وجلود الأنمار ، ويطلب إلى بالادان أن يقرأ على مسمعه أشعار الأولين . فقرأ عليه ذات يوم قصيدة لشاعر أشورى يمدح فيها الملك أزوبار ، الصياد العظيم ، الذى فقد فى آخر أيامه صديقه الحميم هيانى . وفيها يصف الشاعر شدة تأثر الملك ، ويقول إنه كان يصلى إلى الآلهة ، ويبتهل ويضرع على الدوام من أجل صديقه فاستجابت الآلهة طلبته ، وأجارت نفس الحكيم من النار .

وبينما هو يقرأ ذات يوم على عادته ، ونبوخذنصر يسمع مصغياً ، ضعف صوته ثم انقطع دفعة واحدة فنظر إلى الملك نظرة العظيم الحائر وقد اصفر وجهه ، وذهب النور من ناظريه .

فسأله الملك قائلا : « لماذا لا تكمل القراءة ؟ » فأجاب بالاداان مرتجفاً لا متكلماً . وقد حاول التكلم ثانية فكان صوته يصل إلى حنجرته ويموت هناك .

دعا الملك إذ ذاك وزيره تفلاط فحضر فى الحال ، وتبادل الاثنان نظرة فيها علم وفيها ارتياح . ثم قال الملك لبالاداان إنه محزون جداً لما أصيب به ، وإنه سيبحث عما فيه الشفاء .

وكان الخدم يروّحون لبالاداان ، وهو مضطجع على الحشايا الدمقسية وبينها ، فسأل أحدهم أن يجيئه بأدوات الكتابة ، فأخذ القلم وكتب على الورق :

« لا تحزن أيها الملك العظيم على الحقيرين مثلى . أنا لا أخشى الموت ولا أخشى الحياة . قد قتلت خطيبتى خوفاً من ظلمك ، وقد كنتَ أيها الملك العظيم جميلا فى حلمك فغفرت ذنبي . فلا تحزن إذن علىّ بل عجل بالموت إذا كنت حقاً ممن يرحمون » .

وبعد هنيهة عادت إلى بالاداان قواه فنهض عن المضجع مستبشراً ، وطفق يتمشى فى القاعة . أما الملك ، بعد أن قرأ مبتسماً ما كتبه بالاداان ، خاطب الوزير قائلا : لقد أحسنت . فإن الشاب لا يخشى الموت ولا يخشى الحياة ، فاقتل فيه الحواس . هذا الذى يسرنى . لنروّعه إذا كان لا يروعه الموت .

وماذا يجيء بعد الخرس ؟ العمى ؟ . . .

ـ العمى يا مولاى ، إن شاءت الآلهة .

ـ الآلهة يا تفلاط ؟ وما دخل الآلهة فى تركيباتك الكيماوية الخفية ؟

ـ إن للآلهة يا مولاى العلم والقوة كل القوة .

هز الملك رأسه مرتاباً فى ما قاله الوزير ولكنه بعد أن أطرق قال : « إنك مصيب يا تفلاط . ومتى يجيء العمى ؟ »

ـ غداً أو بعد غد بإذن الآلهة .

ـ سأترقب قدومه . ومتى أمسى الشاب أبكم أعمى أعلمه بقصاصى وأعيده إلى السجن ليقضى هناك بقية أيامه . ليعش هذا الخسيس فى ظلمات السجن وظلمات الحياة . ليعش هنالك طويلا . فيتألم ويتألم ، كذلك يكون قصاص من يهينون بمثل إهانته سيد بابل وأشور .

خضع الوزير بين يدى الملك فلم ير ما غشى وجهه من أمارات الخوف والارتياب . وفى صباح اليوم التالى قبل أن ورد الفجر الآفاق كان نبوخذنصر يتمشى فى رواق القصر فجاءه أحد العبيد يقول : « أيها الملك العظيم، قد أصيب بالادان بالعمى » . .

ـ وأى متي كان ذلك ؟

ــ قبل انبثاق الفجر يا مولاى غشاه العمى بغتة كما تغشى زوبعة الرمل عابر الصحراء !

ــ عوفيت يا تفلاط عوفيت !

قال ذلك ومشى توًّا إلى منزل بالادان فرآه جالساً على كرسى محنى الرأس ، مشحوب اللون ، والعبيد واقفون حوله وبين يديه . فأمرهم الملك أن ينقلوه إلى المضجع وينصرفوا فامتثلوا الأمر . فتقدم إذ ذاك إلى الشاب الضرير الأبكم وكلمه قائلا :

ــ اعلم يا بالادان أنى لم أعف عنك قط . قلت لى إنك لا تخشى الموت . وأما الآن ، وقد سلبت النور والكلام ، أفلا تخشى الحياة ؟ هذا هو قصاصى وعدلى . بل هذا هو حلمى . وستبقى حيًّا فى ظلمات السجن إلى ما شاءت الآلهة . إن نبوخذنصر لا يعارض بما سيكون بعد اليوم من أمرك .

بعد أن فاه بهذه الكلمات ، وبدت على وجهه أمارات الفوز ، وقف هنيهة ليرى ما يكون من تأثيرها فى الشاب . وقف ينظر إلى الوجه الذى وجه إليه كلامه فإذا هو هادئ ساكن جامد ! لا يغشاه شىء من الغم ، ولا يحركه شىء من الجزع . فخطر للملك إذ ذاك أن يناديه باسمه فراح نداؤه سدًى ، ناداه ثانياً وثالثاً ، فكأنه ينادى شخصاً من الرخام ، فدنا الملك منه وجثا عند رأسه وصرخ فى أذنه كمن يصرخ فى

وادٍ منادياً رفيقاً تاه فيه . فما حرك بالادان شفتيه بكلمة أو بإشارة .

نبوخذنصر سيد بابل وأشور يخرّ راكعاً أمام هذا العبد المجرم ليسمعه كلمات فيها وحدها القصاص الأكبر . نبوخذنصر ينادى بالادان ، وقد جثا أمامه ، ليسمعه الصوت الذى همسه فى أذن الآلهة . وليريه القلب الذى حجبته أفانين الانتقام . أو ترتاب بقوة الآلهة أيها الملك العظيم ؟ إن الآلهة على ما يظهر أعظم منك وأطغى ، وإن لهم على ما يظهر يداً عاملة قاهرة فى سموم تفلاط الغريبة .

أجل ، أيها الملك العظيم ، إن بالادان الآن أرفع منك لأنه تجرد عن الحواس التى تقيد النفس وتعذبها . إنه بعيد عن صدى صوتك ، بعيد عن هول غضبك ، بعيد عن ظلمات سجنك ، بعيد حتى عن اليد التى ترتجف حول معصمه . الطمه بدل أن تجس النبض منه . كلمه بيدك أو بسيفك . وهو مع ذلك لا يجاوب — لا يتنازل أن يجاوب سيد بابل وأشور . هو سعيد لأنه لا يراك ، ولا يسمع صوتك ، ولا يستطيع أن يخاطبك !

بعد أن جس الملك نبض بالادان ، وتأكد أنه حى تعاظمت حيرته وتفاقم وجده ، فبعث يطلب وزيره الأكبر . فجاء

تفلاط متأبطاً ظنونه ومخاوفه . وكأنه أدرك ما قد يكون لسمومه من أوابد التأثير ، وما قد يجيء فى تركيباته الخفية من النكبات غير المقصودة .

وقف تفلاط أمام نبوخذنصر مشتت الفكر ، مضطرب البال ، وعندما دنا من بالاداى كلمه متجاهلا حقيقة الأمر الذى كان يتوقعه ويخشاه ، ثم خاطب الملك قائلا :

— أيها الملك العظيم قد عصتنى سمومى ، وقد يكون للآلهة يد فى ذلك العصيان . فتغيرت نتائج تركيباتى الخفية أو أنها تجاوزت الحد الذى كنت أرمى إليه . أى مولاى ، إن السموم التى أعطيتها هذا الشاب لتقتل فيه حاسة النظر سرت فى العروق المجاورة وقتلت فيه كذلك حاسة السمع . سرت بالرغم عن علمى الواسع فى ماهية ما أعطيت ، وبالرغم عن الاحتياطات التى اتخذتها ، وبالرغم عن العقاقير المضادة . وأخشى أن تكون سرت فى عروقه كلها فتميته موتاً متدرجاً هادئاً دون أن يشعر بشىء يذكر من العذاب .

صعق الملك . وبعد هنيهة خاطب الوزير قائلا : هل سمعتك تقول إن بالاداى سيموت موتاً هادئاً خالياً من العذاب ؟ أهذا الذى طلبته منك ؟ أهذه مقدرتك فى مزج السموم وتركيبها ؟ أهذا هو علمك فى أنواعها وخاصياتها ؟ يموت

هذا العبد الصعلوك دون أن يشعر بشيء من الألم ، ويموت معه في نفس الساعة عدلي وانتقامي ؟ من ذا الذي يعارض مشيئة نبوخذنصر ؟ من ذا الذي حرك يدك حينما كنت تمزج سمومك الغريبة ؟ من ذا الذي مزج معها خمرة الموت الهادئ ؟ من ذا الذي يتجاسر . . . من هو ؟ من هو ؟ . . . تموت زبيبة لتنجو من غرامي ، ويموت بالادان فينجو من انتقامي وأنا نبوخذنصر الملك أتحرق في غضبي وأشتعل في هيامي؟! لا والآلهة . فإما أنك خائن ، وإما أنك جاهل . وفي كلتا الحالتين إنك لأثيم .

— بحلمك أيها الملك العظيم . لك أن تقول ما شئت عن ضعف وزيرك وجهله . أما الخيانة — آه يا مولاي ! أتظن أن عبدك يدنس بالخيانة حياته ؟ أيشوب بالخيانة شيبه ؟ أيبيع ماضيه الباهر الطاهر لفلاح حقير مجرم ؟ إني أعترف أمامك وأمام الآلهة بجهلي . نعم ، إن جهلي أكثر جداً من علمي ، وإن في الطبيعة أسراراً لا يدركها غير الآلهة . كان يخامرني في الماضي شيء من الريب بجهلي ، وأما الآن فلا أرتاب إلا بعلمي . نعم ، إن للآلهة وحدها كل القوة ، وكل المجد ، وكل العلم . ويظهر يا مولاي أن نواميس الكون لا تخدم مشيئة الملوك . فها إني أحاول خدمة هواك فترتجف

فوق السموم يدى . فهل أنا الملزم ؟ إذا أغمضت الآلهة جفن الفيلسوف وأغلقت دونه أسرار نواميسها أفيعد الفيلسوف مجرماً وهل يقاصّ على ما يظن ويفترض توصلا إلى غرضه الذى هو غرض مليكه ؟ خفف عنك يا مولاى ، ووطد بالآلهة إيمانك ، فلعل خلاصي وخلاصك فى موت هذا المسكين على هذه الحال .

— كفى . كفى . إليك عنى أيها الخبيث ! إليك عنى ! واعلم أنى آذن لك بخمسة أيام لتخرج من بابل . فإذا لم تخرج قبل انبثاق الفجر فى اليوم السادس تظل أسيراً فيها بقية حياتك .

— لا بأس بذلك يا مولاى . فالآلهة تدخل حتى قلوب الملوك فى بعض الأحايين فتسكن الغضب فيها وتنير ظلمات الانتقام بأنوار الندامة . بيد أنه إذا طلبتنى بعد أن تشعل الأنوار ، أيها الملك العظيم ، فلا تجدنى .

قال هذا وخرج مسرعاً . أما نبوخذنصر فظل يمشى فى القاعة مطرقاً . ثم وقف فجأة متنبهاً كأنه أوحى إليه بشىء يسر . وقد رأى بالادان يحرك رأسه ، ويشير بيده فخطر له أن يكلمه بالإشارة ، ونسى أنه ضرير ، ثم دنا من المضجع ليحدق النظر بفريسته فإذا بالضياء قد استحال ظلاماً

رفع الملك يده إلى عينيه لظنه أن الغشاء عليهما لا على ما حوله .
وإن هناك غشاء ولكنه تحت الجفون فلا تصل إليه يد بشرية .
ادلهم المكان فهم الملك بالخروج فأحس أن فى رجليه أصفاداً
من الحديد . ولا أصفاد هناك غير الخوف والذعر . فهل
تسربت إليه سموم تفلاط . هل سرت فى عروقه السموم التى
قتلت فى بالادان الحواس ؟ إن الآلهة لأعلم بذلك . ونحن
لا نعلم إلا أن نبوخذ نصر هو الآن من أشد الناس غما وبلاء ،
وأن بالادان من السعداء المحبورين ..

والدهر فى الناس قلب . أجل ، وقد دارت على الباغى
الدوائر . كان فى نفس نبوخذنصر من الغم والغضب أضعاف
ما كان فيها ليلة كان يتمشى فى البستان ساعة علم بما اقترفه
بالادان .

وفى فجر اليوم التالى ، بينما الطيور تسبح فى الأفنان بحمد
ربة النور والحياة ، وبينما ربة النور والحياة ترسل على الأرض
فيضاً من بركاتها السماوية ، كان نبوخذ نصر واقفاً فى شرفة
القصر يتأمل الأحداث المفجعة التى حدثت فى الأسبوع
الغابر ، وكان تفلاط خارجاً من بابل وهو آسف عليها وعلى
مليكها ، وكان بالادان قد أسلم الروح وعلى شفتيه الذابلتين
الرضى والحبور .

ومما يجب علينا تسجيله من حقائق هذه القصة أن وجه بالادان كان يزداد بهاء وجلاء بعد أن ماتت فيه الحواس الثلاث . كأن القوة فى تلك الحواس تتحول ولا تموت ، فتجرى فى البواطن مجراها ، فتزيد بقوة ذاك الحس الخفى السرى الذى لا يذكره علماء الفيزيولوجيا فى كتبهم ، والذى بواسطته نرى ما لا تراه العين المجردة ، ونسمع ما لا تسمعه الأذن .

وكأن بالادان ، بعد أن تجرد بعض التجرد من المادة صار يرى معشوقته زبيبة رؤية البصر ، ويسمع وهى فى عالم الأرواح صوت حبها ووفائها ، أو ليس الحبور الذى يغير وجهه نتيجة ظاهرة لتلك الكلمات الذهبية التى كانت تقع من شفتى نفس بعيدة على أذن هذه النفس الواقفة فى باب قفصها المادى وهى على وشك الخروج منه ؟ ليس من ريب إذن أن بالادان مات سعيداً . وليس من زيب أنه فى الأقل نجا من انتقام نبوخذنصر . إن أطباء القصر وعبيده يشهدون على ذلك . وهم يشهدون أيضاً أنه مات وعلى شفتيه بسمة الرضى والحبور . أما القصد من التأكيد فى تسجيل هذه الحقيقة فسيظهر فى ما بعد .

نعم ، قد مات بالادان ، وقد خرج من هذا العالم مثلما خرج تفلاط من بابل ، كلاهما آسف عليها وعلى مليكها

العظيم . وقد جيء بالخبر ، خبر خروج الاثنين ، إلى الملك وهو في شرفة القصر ، فاقتبله ساكتاً هادئ البال . وظل كل ذاك اليوم ، وقد خلا بنفسه ، مثلما كان في الصباح . فلم يأمر حتى بدفن بالادان ، ولم يقابل رئيس الكهنة الذي جاء يخاطبه بشأن تفلاط ، ولم يأذن لأحد من وزرائه بالمثول بين يديه . ولنا أن نقول ، إذا كان بالادان قد نجا من انتقام نبوخذنصر ، وتفلاط من غضبه ، وزبيبة من شهواته ، فالنفس في نبوخذنصر لم تنج من الغم والهواجس والأوهام .

إنك تعلم أيها القارئ بأن نبوخذنصر لا يزال أسير الغم والغضب ، ولكنك لا تعلم بأنه أمسى كذلك فريسة للأوهام والأباطيل . فلا تظنه محزوناً مضطرباً لأنه لم ينتقم من بالادان ذاك الانتقام المرعب الفظيع ، أو لأنه نادم على طرد وزيره الأكبر من بابل ، أو لأن ذاك الشاب الفلاح مات موتاً سعيداً . لا . لا . فقد أمست جميع هذه الأمور عنده في خبر كان .

إنما الذي يقلق نبوخذنصر الآن ويشغل أفكاره ويعذبها هو شيء صغير يتعلق به وبالآلهة . أو ليس هو القائل أن لا قوة فوق قوته؟ فلاملوك الأرض ولا آلهة السماء تقوى على نبوخذنصر !

أما إذا قال هذا القول الآن فالسموم تكذبه ، ويكذبه

كذلك الموت ، فكيف تتدخل الآلهة فى شؤونه وتعترض مشيئته الملكية ؟ كيف يغمضون جفن وزيره ويرجعون فوق البوتقة يديه ؟ وما هى قوة الآلهة ؟ وبأية طريقة يتدخلون فى شؤون الدنيا ؟ ... هى الأفكار التى شغلت قلبه وذهنه كل ذاك اليوم ، فسلبته شهوة الأكل ولذة الرقاد .

وظل كذلك إلى أن أشعل الليل مصابيحه فى السماء فدخل إذ ذاك مخدعه ، ورمى بنفسه على السرير ، ثم أمر الخدم بإطفاء الأنوار والانصراف وما كانت الظلمة لتعين نبوخذنصر على الأرق فظل يتقلب على فراش الهواجس حتى الهجعة الرابعة من الليل .

وفى تلك الساعة تراءى له طيف إلى جانب الحائط ، فنهض من سريره مندهلا مذعوراً ونادى العبيد فجاؤوا مسرعين ، فأمرهم بإشعال الأنوار ، فأشعلوها ، ثم أمرهم بإطفائها فأطفئت.

وانصرف العبيد ، وعاد الملك إلى سريره يغالب السهاد . إلا أنه سمع ، وهو على وشك النوم وقع أقدام فى مخدعه . ففتح عينيه وإذا بالطيف الذى تراءى له قرب الحائط قد صار فى وسط القاعة . فنهض ثانية ونادى العبيد . فجاء هؤلاء مسرعين وبأيديهم المصابيح المشعلة . أما الطيف فكان قد اختفى قبل دخولهم . ثم عاد بعد أن خرجوا من القاعة ،

فوقف إلى جانب السرير الملكى . فغر الملك المسكين فاه صارخاً . ثم جلس مرتعباً وقد قبض بيديه على الوسادة والغطاء وجمع ما تبقى فيه من الرشد والشجاعة ليحدق فى الطيف نظرة .

هل فى زمانك أيها القارئ نظرت إلى وجه ميت وقد كفن بضوء القمر ؟ إذن ما رأيت قط شيئاً مرعباً . وخير لك ألا ترى وجه نبوخذنصر حينما وقع نظره على نظر الطيف الواقف أمامه . وإننا من أجلك نضرب صفحاً عن مثل هذه التفاصيل ولا نقول سوى أن الملك حرك شفتيه فنطق الرعب فيه يخاطب الطيف أمامه .

— ألست بالادان ؟

— أنا هو .

— ولكنك حى .

— حى بالروح أيها الملك .

— أو لم تمت صباح البارحة .

— مات الجسد الذى حاولت أن تسومه صنوف العذاب . أما الروح التى تخاطبك فما مسها شىء من سمومك .

— والقصد من مجيئك الآن .

— جئتك يا نبوخذنصر من عالم الأموات بل عالم الأرواح أحمل إليك نبأ من أسلافك ملوك بابل وأشور . فاعلم

أصلحت وعوفيت ، أنى ، بعد خروجى صباح أمس من هذا العالم ، مررت بواد عميق مخيف مظلم يجرى فيه نهر أسود من الزفت الذائب ، وعلى شواطئه عمد كبيرة من الحديد الذى ذهبته النيران وجادات من الجمر المتأجج وقد تصاعد منه اللهيب والدخان . وفى تلك الجادات رأيت أناساً كثيرين يمشون ذهاباً وإياباً . عراة يمشون . مطأطئين الرؤوسَ محنين الظهورَ ، وعلى أكتافهم أحمال غريبة الأشكال ، وفى أيديهم سلاسل من حديد تقطر من اللحم الذى يذوب عليها . ومن هؤلاء أناس يمشون فى عزلة عن سائر الناس . كأنهم كانوا فى العالم من الأعيان والكهان والملوك . وقد رسا فى وجوههم من آثار المجد والعز ما يذهل الغريب ويروعه . ناهيك بأن الأصفاد فى أيديهم وأرجلهم أثقل من سواها ، والأحمال على ظهورهم من الفولاذ الملتهب ، فيذوب اللحم تحتها ولا تنفد أدهانه . خنقنى الغم إذ وقفت أمامهم . وقد خاطبنى أحدهم سائلا : من أين أتيت ؟ وإلى أين أنت سائر ؟ فأجبته : أنى عابر طريق وأنى من بابل . فصرخ إذ ذاك صرخة هائلة وطفق يبكى كالطفل الفطيم . ثم خاطبنى بصوت كصوت الصغير فقال : أنت من بابل ؟ بابل مدينتى ، بابل مملكتى . بابل سبب هلاكى وبلائى ! قال ذلك وهو يجهش . ثم

طفق يبكى فأبكانى . وكدت مما ملكنى من الحزن ومن الاحترام لما هو فيه كدت أقول : عليك السلام . ولكن الأرواح تخجل مما تكون قد ألفته فى العالم ، تخجل من كل شيء سوى الحب . ثم خاطبنى آخر فقال : اعلم أنك أمام ملوك بابل ونينوى ، ومعنا كثيرون من الصيارفة والكهان ، وبما أن الذين يتعذبون فى هذا الوادى لا يؤذن لهم بالعود إلى العالم فأسألك أنت أيها الغريب أن تعود إلى بابل وتخبر نبوخذنصر بما رأيت وما سمعت . هى ذى حياتنا فى وادى النار واللهيب . انظر كيف يذوب اللحم تحت الحديد المشتعل ولا يفنى ، وكيف يملأ الدخان العيون فتحرقها الدموع الغالية . واعلم أنه محتوم على كل منا أن يقضى ليله جالساً على عمود من هذه العمد الحامية . وفى الصباح يقذف بنا زبانية النار إلى نهر الزفت . ثم نخرج من النهر ونمشى فى هذه الجادة الملتهبة نجر أوزارنا — وبعد ذلك يصعد كل منا إلى عموده. أما ساعات الليل أيها الغريب فهى أمر ساعات الجحيم . نقضيها فى السهاد والعذاب فتتساقط من عيوننا الدموع الغالية ، ومن شفاهنا اللعنات والأنين . آه ثم أواه ! وقد قيل لنا إننا بعد مضى ألف سنة فى وادى النار نخرج مكبلين بالسلاسل مثقلين بالأحمال لنسوح فى العالم ليلا ونعود فى النهار إلى وادى النار . فعد أيها

الغريب إلى بابل وقل لنبوخذنصر إن رئيس الكهنة قد رثى لحالك وأحب أن ينقذك من العذاب الذى هو فيه . فاغتنم الفرصة قبل فواتها – اغتنمها قبل أن تأتيك حشرجة الموت. هذا الذى رأيت وسمعت . هذا هو الخبر الذى أحمله ، فاذكره يا نبوخذنصر واذكرنى . الوداع ثم الوداع .

عند ما انتهى الطيف من كلامه غاب عن نظر الملك ، فصاح يناديه : قف قف يا بالادان. وعبثاً كان ينادى . فقد لباه بدل بالادان العبيد ، فطردهم من الغرفة ، وقد وثب من سريره كالمجنون وطفق يتمشى ذهاباً وإياباً ، وهو يناجى نفسه .

– أملوك بابل وأشور فى نار الجحيم . ورئيس الكهان ، أخى ، أخى فى النار ؟ ! كذب المخبر . كذب بالادان . إنه لوهم وخرافة . الميت لا يعود إلى العالم . والملوك لا تهلك . لا . لا . كله كذب واختلاق . . . الملوك لا تهلك . . .

فجاء صوت من الخارج يقطع عليه كلامه ويقول : اذكر ما قلته لك واذكرنى .

– هو صوته . هو لا يزال قريباً منى . هو يذكرنى وينذرنى ينذر نبوخذنصر . ماذا تقول يا رجل ؟ أين أنت الآن ؟ وهل أنت الملك : ملك بابل وأشور ؟ أهذه يدك ؟ – أفى هذا الصدر قلبك ؟ – أفى هذا الرأس عقلك ؟ – أهذا هو الجبين

الذى تنيره كواكب السماء ؟ أو أنت الآن فى قصرك ؟ وأين صولجانك . وأين تاجك . وأين حسامك ؟ إذن لم لا تتحرك ؟ من يتجاسر أن يدخل عليك فى الليل ؟ أنت نائم أم أنت فى حلم ؟ استيقظ يا نبوخذنصر استيقظ . . . حسامك ، استرجع بحسامك شتات مجدك .

تناول السيف وهم بالخروج فخانته خطاه ، فاصطدم بالحائط .

ـ آه ثم أواه ، أيضمحل مجدى أمام خيال زائل ؟ أتنهد قواى من كلمة سمعتها ؟ أيسكتنى بالادان وهو ميت بعد أن احتقرنى وهو حى ؟ ثم ينذرنى بالهلاك . الهلاك لنبوخذنصر والموت السعيد والسعادة الخالدة للصعاليك ؟ لا والآلهة ! الملوك لا تهلك . أين بالادان ؟ أين أنت أيها الخيال اللعين ؟

وكأنه رأى الخيال عائداً ، فهجم وقد استل سيفه عليه . ولكنه وقف جامداً كالخشبة عند ما سمع الصوت ثانية يقول : اذكر كلامى واذكرنى .

ـ لا حاجة إلى القول إن نبوخذ نصر لم ينم تلك الليلة . وفى صباح اليوم التالى خرج من القصر مبكراً وظل يمشى حتى وصل إلى شاطئ الفرات خارج المدينة . فجلس فى ظلال مقصبته هناك يستريح فرثى النوم لحاله وحل فى جفنه ضيفاً كريماً .

قد شاهدته أيها القارئ وهو فى سكرة الغضب . فانظر إليه الآن . إن نبوخذنصر فى البستان هو الغضب المجسم . هو الشر المستطير . هو الظلم فى أفظع مظاهره . ونبوخذنصر النائم الآن على شاطئ النهر هو الحب فى طفولته . هو الخير فى فجره . هو الرحمة فى مظهر جديد . هو الصلاح فى أطمار الفقراء . هو الندامة فى مسوح المتنسكين .

وهو الآن على شاطئ الفرات يحلم حلماً جميلا ، فهل يمحو بعمل واحد آثامه ومظالمه كلها .

ولكنه لا يزال فى بحر من الهواجس مضطرب الأمواج ، فتراه واللون فى وجهه يتحول أصفر أحمر فينم على ما هو فيه من الاضطرابات . هو مركب تتقاذفه الرياح . بل هو ذبابة فى عنكبوت رتيلاء الحيرة . أتقتله الرتيلاء أم يخرج من عنكبوتها فائزاً الفوز المبين .

زمجر الأسد فى عرينه فاستفاق نبوخد نصر . وكانت الشمس قد تكبدت السماء ، وتحولت أشعتها العمودية على وجه النهر حجارة كريمة تشع كالألماس . واشتد فى اشتداد الحر صرير الجنادب .

ما عدا ذلك فالسكون كان عميقاً ، وقد استقر فى كل شيء كأنه الفصل الأول من فصول الحياة أو كأنه يعد للطبيعة

المقبل . ففرش لها أغصان الدلب الذهبية ، وأغصان الحور الفضية ، وحشايا القصب اللازوردية ، وسكن لها حتى النسيم الذى كان يلاعب الأسل على الشاطئ والكلأ فى الحقول .

وكان الملك لا يزال تعباً ، فجلس يتأمل ما كان عليه فى الصيف الماضى من الكدر والغم . ولكن غمه فى الصيف الماضى كان قصير الأجل ، ولم يكن سيئ العاقبة ، فأولئك الذين أثاروا غضبه أخرجوا سريعاً من مسرح الوجود . وما كان ليسكن غضب نبوخذنصر إلا مثل هذا الانتقام العاجل. وأما الآن فبالادان على ما يظهر من المحبورين ، وتفلاط من المغبوطين لأنه بعيد عنه ، والآلهة على العروش خالدون، وملوك بابل مع رؤساء الكهنة فى النار ، ونبوخذنصر — آه ثم أواه !

استفاق وهو يتأوه . ونهض وهو يلطم جبينه بيده . ثم سار مسرعاً مستبشراً وعاد إلى القصر فجمع أمامه الوزراء والموظفين والعبيد ورؤساء الكهان كلهم وخاطبهم قائلا :

اعلموا أن للآلهة القوة كل القوة ، والعظمة كل العظمة ، والعلم كل العلم . وما ملوك بابل وكهانها غير خدم للآلهة . وإنى آمر الآن بأن تطلقوا سراح المسجونين فى مملكتى كلها ، وتطلقوا كذلك سراح الحريم فى القصر . وترسلوا إلى وزيرى الأكبر تفلاط أن يرجع بأمر مليكه إلى منصبه ، وتدفنوا

بالادان بكل احترام فى المعبد الملكى . وليكن زمام الملك بيدك أيها الوزير إلى أن يعود تفلاط . هذه هى أوامرى هذه هى مشيئتى .

ثم أم المعبد فدخل إلى مخدع رئيس الكهنة فيه ، وأقام هناك حتى المساء ، فعاد إذ ذاك إلى القصر، وكان قد أمر أحد العبيد بأن يجيئه بقميص من الخيش فخلع أثوابه الدمقسية والأرجوانية واستشعر القميص الخشن . لبس نبوخذنصر المسح وصار من النساك الزاهدين المتعبدين .

وظل على هذه الحال يأكل قليلا ويصلى كثيراً ، فنحل جسمه ، وخارت قواه ، واحتل منه مقر الفكر والنهى . وبينما كان عائداً ذات يوم من المعبد أغمى عليه أمام القصر تحت الشرفة التى كان يطل منها على بابل . فنقله العبيد إلى داخل القصر ، وبادر إليه الأطباء ولكن الطبيب الأكبر سبقهم جميعاً ، فشفى نبوخذنصر من أمراض الحياة كلها . . . ودفنوه عملا بمشيئته الملكية ، فى المعبد الملكى ، إلى جانب بالادان .

عبد الحميد فى سجن الآستانة

المشهد الأول

يرفع الستار عن جماعة من السجناء وبينهم خورشيد وسليمان وفهيم . بعضهم يلعب بالورق والآخرون يتحدثون ويضحكون . وهنا أحدهم مستلق على ظهره ، وهناك آخر جالس وحده يتأمل يديه . وفى مؤخر المسرح حيدر باشا يتمشى والهموم تثقل جبينه . ثم يجلس فى الزاوية معتزلا .

(يدخل محمود)

محمود : أعلمتم أيها الإخوان أن الاتحاديين خلعوا السلطان ؟

خورشيد : عبد الحميد خان ؟

محمود : نعم خان !

سليمان : ولماذا خلعوه ؟

محمود : يا غليظ ، أما سمعتنى أقول إنه خان . خان الأمة . خان الدين . خان الوطن .

خورشيد : حسناً يفعلون . ولكننا نحن المجرمين لا نخلعه فهو سلطاننا إلى الأبد .

محمود : أى نعم ، سلطان المجرمين .

الكل : إى والله هو سلطان المجرمين .

خورشيد : وأين هو الآن ؟

محمود : قيل إنه نقل إلى قصر فى سالونيك .

خورشيد : ولم لم ينقلوه إلى قصرنا هنا ؟

محمود : وهل يقيم السلطان ورعيته فى بيت واحد ؟

خورشيد : ولكن فى قصرنا هذا الفخم غرفاً كثيرة .

سليمان : وما ضره لو أقام معنا ، وعاش مثلنا ، وأكل من أكلنا ؟ أللسلطان معدتان يا ترى ؟

محمود : يالك من أرعن جاهل ! ألا تعلم أن من يقتل البشر بالمئات تعد له الأمة القصور الفخمة ، تهابه وتكرمه . ومن يقتل الناس بالألوف تمجده ، وتُنصَب له التماثيل . فمن أنت بالنسبة إلى هؤلاء السفاكين الكبار ، والفاتحين العظام ، ليخطر فى بالك الإقامة معهم ؟ كم مخلوقاً قتلت فى حياتك ؟

سليمان : واحداً فقط .

محمود : اسكت إذاً . فإنك لا تستحق أكثر من ست أقدام مربعة فى هذا السجن وكسرة من الخبز فى قليل من الماء الفاتر المالح كل يوم .

سليمان : آه ! أين الإنصاف أيها الناس ! وإننى أحلف أمامكم وأمام الله إننى أكلت أصابعى ندامة على الإثم الذى اقترفته .

محمود : وماذا ينفعك أكل أصابعك ؟ كل سلاسلك يا سليمان لعلك تتخلص منها ومن السجن .

خورشيد : وهل عبد الحميد الآن فى السجن بسالونيك ؟

محمود : هو فى قصر هناك كقصر يلدز تسميه الأمة سجناً ؟

فهيم : لعنة الله على هذه الأمة . ما النفع إذاً من خلع السلطان ؟

محمود : لا تصرف غيظك سدًى يا فهيم . إن فى خلع عبد الحميد منافع جمة لنا وللأمة . فغداً يعفو السلطان الجديد عن المجرمين .

فهيم : ليحبسوا عبد الحميد معنا ، وليحبسوا عنا عفوهم . هذا عندى عين العدل والإنصاف .

محمود : أما إذا عُفى عنا فنحن اليوم أفهم مما كنا بالأمس . قد تعلمنا أمثولة جديدة (يحدث فى السجن جلبة وغوغاء) اسمعوا إذا كنتم تحبون أن تنتفعوا من خلع عبد الحميد . عندى نصيحة

أقدمها لكم مجاناً . فإن اتبعتموها . .

سليمان : ما هى ؟

الكل : ما هى ؟ قل ما هى ؟

محمود : غداً يصدر السلطان الجديد عفوه الشامل ، فنصير نحن أحراراً كبقية الأحرار فى الدولة ، ونسير تواً إلى سالونيك . . . (قهقهة وضجيج) ألا تريدون أن تسمعوا ؟

سليمان : أنا لا أذهب إلى سالونيك .

محمود : لك أن تذهب حيث تشاء بعد أن تصير حراً . لعنة الله على كل جبان . اسمعوا أيها الإخوان : إذا عدتم بعد أن تصيروا أحراراً إلى حرفتكم الشريفة فأحسنوا القتل . القتل ! وإلا فلا ! افتكوا ، ولا تصغوا إلى ما يسميه الأتقياء صوت الضمير . اقتلوا ، ولا تعيروا أذنكم إلى ما يدعوه الشعراء المغرورون صوت أطفال القلوب . كونوا من الفاتكين ، من الشجعان ، ولا تندموا فى الصباح على ما تهرق خناجركم من الدم فى الليل . لكم — متى صرتم أحراراً — أحد أمرين : فإما أن

تهتدوا وتصلحوا حالكم فتصيروا مؤذنين وقارئين
ومعلمي أولاد . وإما أن تضربوا فى الأرض ،
وتفتكوا فى الناس ، فتصيروا من كبار
السفاكين المشهورين المحترمين . إذ ذاك
تهابكم الأمة ، وتكرمكم الحكومة . وإذا سقط
نجمكم فى نهاية أمركم ، وانتصرت الإنسانية
عليكم ، أو العبودية ، فتسجنكم الأمة فى
القصور الفخمة ، لا فى الأكواخ المنتنة
المظلمة ، وتصرف عليكم من الأموال فى الشهر
ما يكفى الواحد منا طول حياته .

سليمان : وهل يصرفون هذه الأموال على عبد الحميد الآن ؟

محمود : وهل يكتفون بها ؟ ألا تحسب أجرة القصر ، وأجرة الحرس ، وأجرة الخدم والخصيان ؟

خورشيد : ولمَ الخصيان ؟

محمود : لأن الحكومة المحترمة الرقيقة القلب ما أحبت أن تحرمه حريمه ، فأذنت له باثنتى عشرة امرأة يقمن معه فى القصر .

خورشيد : ما أعدل هذه الحكومة ، وما أرحمها ، مسكين

خورشيد ! ومسكينة امرأته !

محمود : وقد أذنت هذه الحكومة بأن يصحبه كذلك نجله الصغير فلا ينقصه شيء من دواعي التعزية والسلوان .

(عند هذا يقف حيدر باشا وقد لاح على وجهه الاضطراب)

حيدر : هو وحريمه وابنه يقيمون اليوم في قصر ألاتيني ، محفوفين بالخدم والخصيان ، متوسدين الريش والحرير ، آكلين من مال الأمة التي امتصوا دماءها واستعبدوا أبناءها ؟! وهل هذا يا ترى ما يدعوه الناس اليوم مساواة ؟ هل هذا هو العدل يسقوننا منه بالجرة ويسقون غيرنا منه بالملعقة ! ؟ أيجوز أن يكون في الحكومة ميزانان للعدل : ميزان للمجرمين الكبار وميزان للصغار ؟

الكل : لا والله لا !

سليمان : ولكن حكومتنا اليوم حكومة دستورية . فلماذا تعامل عبد الحميد هذه المعاملة ؟

محمود : لأن حكومتك الدستورية تخاف أن تقتله ، بل تخاف أن تحاكمه .

فهيم : وهل تخاف الحكومة من رجل واحد ؟

محمود : نعم ، متى كان هذا الرجل سلطاناً بفضل الخرافات والأوهام كعبد الحميد .

سليمان : وما الفرق بين السلطان المجرم وبينى مثلا ؟

محمود : قلت لك أيها الأرعن الغليظ إن الفرق بينك وبين مولاك هو كالفرق بين من يذكر الله ويذبح كل يوم ، ومن يقترف مرة إثماً صغيراً ويأكل أصابعه ندامة كالجبان .

سليمان : والله إذا خرجت من السجن غداً لأقتلن فى يوم واحد مئةً من الباشاوات كى لا يقال عنى إننى مجرم صغير .

فهيم : لا تكلف نفسك كل هذا . فإذا كنت حقاً شجاعاً فدونك الباشا الذى معنا . فهوَ من الذين كانوا يذكرون الله ويذبحون .

الكل : اقتلوه . . .

(عند هذا تعلو ضجة السجناء ، فتطفأ الأنوار على المسرح ، ويرفرف فيه طائر جميل أبيض كالثلج ، له جناحان يشعان كنور الشمس حين شروقها . فيرف هذا الطائر فوق رأس حيدر باشا ، ويستقر عليه ، فينير وجهه . ويضرم النار فى حاجبيه ، فيسقط إذ ذاك عن الباشا ثوب السجين ، ويبدو العيان فى هالة من النور كشير

من مشيرى الدولة وقد لبس ثوبه العسكرى واستل حسامه)

حيدر : اتبعونى ، وإن شئتم بعد ذلك فاقتلونى ..

(يخطو خطوة نحو الباب ، فيسقط حائط السجن أمامه ، كما لو كان من نسيج العنكبوت وقد نفخت فيه الرياح . ثم يخرج ويخرج السجناء معه)

* * *

المشهد الثانى

غرفة فى قصر ألاتينى بسالونيك منيرة بالشموع
عبد الحميد جالس على الديوان ، ونجله الصغير
إلى جانبه ونعمت بين يديه

نعمت : مالى أراك مضطرباً يا مولاى ؟ خفف من روعك واصرف عنك الهواجس والأوهام .

بدر الدين : أين هو الخيال يا أبتِ؟ وفى أى شكل بدا لك ؟ هل هو كبير ، طويل ، أسود اللون ، كالمارد فى القصة التى قصتها علىّ نجم العيون ؟

نعمت : لا تذكر الآن هذه الأشياء . ألا تراه مضطرباً

قانطاً حتى الموت . . . مولاى ، أتأمر بالانصراف . أتريد أن تكون وحدك ؟

عبد الحميد : لا ، لا ، لا .

نعمت : إذن ، تعطف على عبدتك بابتسامة ، وارفع عن عينيك غشاوة الوهم . إنك الآن أحسن من ذى قبل . فقد ارتحت فى الأقل من هموم السلطنة التى كانت تؤرقك . وتسقيك مرّ العذاب .

عبد الحميد : ولكننى أخاف أن يقتلونى .

نعمت : كيف يكون ذلك وقد قرروا ألا يحاكموك ؟

عبد الحميد : أخشى الغدر . أخاف أن يق . . . يا لله !

(يدخل حيدر باشا فى شكل خيال ، وقد تنكر برداء أسود . فتأخذ الأنوار فى الانطفاء رويداً ، ويعم المسرح الظلام ساعة ينتهى حيدر من كلامه)

عبد الحميد : ما بالك تتبعنى ؟ ماذا تريد ؟ ومن أنت ؟ تكلم ! تكلم !

نعمت : ماذا جرى يا مولاى ؟ من هذا الذى تكلمه ؟ إلى متى تظل أسير هذه الأوهام ؟

عبد الحميد : ألا ترين ؟ هناك ، هناك . انظر يا ابنى .

هذا هو الخيال اللعين .

بدر الدين : أين يا والدى ، أين هو ؟ أحب أن أراه . أنا لا أخشاه يا والدى .

عبد الحميد : هوذا ، هوذا يدنو منا . ماذا تريد؟ ماذا تريد منى ؟

حيدر : كلمةً ، يا عبد الحميد .

عبد الحميد : تكلم ، تكلم .

حيدر : هى لعبد الحميد لا لسواه . . .

(يشير إلى نعمت وبدر الدين)

عبد الحميد : حسن . تكلم

(حيدر يشير ثانية إلى نعمت والولد فيأمرهما عبد الحميد بالانصراف)

عبد الحميد : اذهب معها يا بنىّ .

بدر الدين : ولكننى أحب أن أرى هذا الخيال الذى يشغل بالك ، ويقلق راحتك . أحب أن أراه . أنا لا أخشى الخيال . لا ، والله ، لا أخشاه . آه ، أين سيفى الآن ؟ !

عبد الحميد : اذهب ، اذهب مع نعمت يا بنى . . . تكلم الآن ، ولا تدنُ منى .

حيدر : لا تخف ، إنما أصغ لكلامى وأجب عليه .
كان لأحد الشيوخ الكبار ، فى إحدى
القبائل الهمجية ، نهمة غريبة فى سرقة
الأطفال وذبحها . وكان له أعوان وجواسيس
يعملون بإشاراته ، ويحترمون غريب شهواته .
ولما استفحل أمره ، ولم يبق فى القبيلة رضيعٌ
قامت الرجال والنساء على هذه الزمرة اللعينة ،
وألقت القبض على الشيخ ، وعلى كل رجاله
وجواسيسه ، فقتلت منهم صغارهم ، ونفت
كبارهم ، وسجنت أقاربهم وأنصارهم .
أما الشيخ ، فإجلالا لمقامه ، وعملا بأمر
كهان القبيلة ، أقاموه حاكماً عليهم ، بعد أن
ندم أمام الكاهن والناس على آثامه كلها ،
ووعدهم ألا يقترف مثلها فى المستقبل . فأثارت
هذه المعاملة خواطر السجناء الأبرياء ،
وقاموا يطالبون بدمه باسم أطفال الإنسانية .
وما انفكوا حتى فازوا فأراحوا القبيلة من
شيخها السفاح الجبان ، ومن شركائه الكهان .
فما قولك ، يا عبد الحميد ، فى مثل هذا

العمل ؟ أعدل يُعدّ أم لا ؟

عبد الحميد : وما معنى قولك هذا ؟

حيدر : إذا أبت الأمة قتل شيخها السفاح . . .

عبد الحميد : وهل تريد قتلى ؟

حيدر : أنا أحد عبيدك المخلصين يا مولاى . أنا أحد وزرائك الذين خدموك ليل نهار ، ودفعوا عنك مراراً دسائس الأشرار . أنا الذى شربت من دم الأبرياء من أجلك . أنا الذى أكلت فلس الأرملة احتراماً لأهوائك . أنا الذى نهب العباد ليرضى سيد العباد . أواه ! أنا الذى أعمى الله البصر منه والبصيرة فجعلنى من أصفياء عبد الحميد . أنا أحد تلك الآلات الصماء بيد الجبار الجزار . نعم ، كنت آلة فى الأمس وسأصير عليك غداً نكالا . أنا الآن آكل خبز الذل والهوان مع المجرمين ، وأنت سيدى ، ولىّ أمرى ، مالك عنقى ، تتنعم اليوم فى ألاتينى ، كما كنت تتنعم أمس فى يلدز . ذلك لأن الجهل لا يزال سائداً فى الأمة ، والظلم لا يزال مؤيداً فى الحكومة .

ذلك لأن الشرع يقدس شخصك ويرذل من
أجلك أمة بأسرها . ذلك لأن التقاليد الخبيثة
الفاسدة تعزز مقامك وتذل شأن الوطن
والحكومة . ذلك لأن التعصب الديني والجنسي
لا يزال قابضاً على الصولجان في ديوان العدل
والإنصاف . ذلك لأن . . . (عبد الحميد
يستوي واقفاً ويهم بالخروج) . . . . مكانك ،
يا عبد الحميد ! أود والله لو تجسدت فيك
هذه الشرائع ، وهذه التقاليد، وهذه العادات،
وهذه الأنظمة والقوانين كلها فأشد على عنقك
بيدي ، وأريح العالم منك ومنها معاً .

(عبد الحميد يحاول الخروج فيرى الباب مقفلا)

عبثاً تحاول ذلك . فإذا كانت الحكومة تخاف
أن تحاكم عبد الحميد — إذا كانت الأمة
تخاف أن تقتل عبد الحميد — فلست أنا
الآن من هذه الأمة ولا من تلك الحكومة . أنا
خارج الشرع ، يا عبد الحميد . أنا تحت
القوانين والأنظمة ، بل أنا الآن فوقها ، أنا
فوقها ، لأنني مجرم ، سلاحي الحق . أنا

رجل أثيم حقير يا مولاى ، جئت الآن أغمس
سيفى فى دم سلطان المجرمين .

عبد الحميد : إلىّ ! إلىّ ! خنقونى ، قتلونى .

حيدر : ادخلوا ، ادخلوا ! تعالوا ، أيها المجرمون
الصغار ، واغمسوا أيديكم فى دم هذا المجرم
الكبير .

(يدخل السجناء كالأشباح فى قمصان سوداء ،
فتعلو الضجة صراخ عبد الحميد ، وتنطفىء أنوار المسرح ،
فتتوارى إذ ذاك الأشباح وتزول الضوضاء) .

عبد الحميد : أواه ، أواه ! آه ! خنقونى ، قتلونى .

* * *

المشهد الثالث

الغرفة نفسها وقد أنيرت بالشموع .

(عبدا لحميد جالس على الديوان غارق من الخوف بين
الحشايا ، كأنه يحاول أن يخفى نفسه مما تراءى له من
الأشباح وابنه ونعمت جالسان بين يديه)

بدر الدين : أين هو الخيال يا والدى ، أين هو ؟

نعمت : مولاى ، ما هذه الأوهام ؟ ألا تريد أن تخرج إلى البستان فتستنشق النسيم فى نور القمر ؟

عبد الحميد : والأشباح ، والأشباح ؟ ألا يظهرون فى البستان ؟

نعمت : أى أشباح يا مولاى ؟

عبد الحميد : الأشباح ها هم ! ها هم ! اخسؤوا . إليكم عنى يا ملاعين ! إليكم عنى !

(يقف ليهرب) ارحمونى . لا تدنوا منى . آه خنقونى . أواه ! أواه ! قتلونى .

(يقع على الديوان مغشياً عليه ، وبعد قليل يستيقظ كأنه فى حلم)

أشباح آثامى ، لا يابنى ، أشباح مجد أبيك . ها هم . قفوا ! قفوا ! (يهم بالخروج) إليكم عنى ، أيها الملاعين ! يا لله ! وهل أنتم فى كل مكان ؟ أتسدون فى وجهى كل مهرب ، وكل ملجأ ؟ ربى ! أرى الأشباح السوداء تذوب حولى ، أراها تزبد حولى كالأمواج الهائجة — أرانى فى بحر من الزفت المشتعل بل فى بحر من اللهيب . إنما أنت واهم

يا رجل ، أنت الآن فى ألاتينى ، أنت فى السجن . ولكن ما هذه الأمواج التى تلطم خدى؟ ما هذه الأمواج التى تزبد فوق رأسى ؟ لا لا . إنما هى محض أوهام. أنا عبد الحميد ! أنا فى قصرى الآن ! أجل أنا فى يلدز ، بل أنا فى . . . يا لله ! ما هذه القصور التى أراها على ذلك الشاطئ بين تلك البساتين الغنَّاء ، إنها قصورك ، يا عبد الحميد . نعم ، وهذه بساتينك تغرد فيها الطيور ، ويداعب أغصانها نسيم الربيـــع . فكأنها لا تعرف الأحزان ، ولا تشعر بالهجران ، كأنها تسخر من هذه الأمواج السوداء ومن هديرها .

آه ! أين أنا يا ربى. ربى ، أين أنا ؟ أديوان فى القصر هذا ، أم قارب فى البحر ؟ هل أنا أمام شواطئ أرضى وفى ظل بساتينى ؟ هل تلك هى قصـــورى ؟ إذن ، أنا فى البوسفور . أنا فى قبضة الأمواج . هى ذى الأشباح ترقص حولى طرباً . أراها تسخر

منى . أراها تشير إلى إشارة الازدراء . ربى ،
ارحمنى ، بل أغرقنى ربى فى لجج البوسفور
أمام القصور التى لعبتُ فيها صغيراً وخرجتُ
منها حقيراً . ولمَ ؟ ألأننى كنت فى يد
الأقدار أعمل مأموراً كأصغر عبيدى ؟
ألأننى سجنت ثلاثين سنة فاستحال نهارى ليلا
وليلى جحيما ؟ ألأننى كنت بين وزرائى كوزير
بين السلاطين ؟ ألأننى ما أكلت مرة وكنت
أميناً من العيش بعدها ؟ ألأننى ما نمت ليلة
وتأكدت أنى سأستيقظ حيًّا ؟ لا . لا . بل
لأنك أعطيت ملكاً فلم تحسن سياسته. لأنك
طردت من ضميرك روح الحق والإنسانية ،
وخنقت فى قلبك جنين رحمة الله . وأطفأت
فى نفسك نور عدل الله .

صوت فى الظلمة : إيه عبد الحميد !

عبد الحميد : رحماك ربى . أواه ! ... اصرف عنى هذه
الأشباح . لا تسمعنى اليوم هتافها وقد
أسمعتنى بكاءها بالأمس ، أواه أتتزاحم
حولى كلما استرحمت وكلما تأوهت ؟ أتسخر

من دموعى ؟ أويضحكها بكائى ؟ اخسأ .
أتلطم خدى ، أيها اللعين ؟ ! أتبصقون
فى وجهى ، أيها الأخساء الأشقياء ، ولمَ
لا تقتلونى بعد هذا ؟

صوت فى الظلمة : الانتقام ؛ الانتقام !...

عبد الحميد : آه ما أشد هذا الانتقام ! أتنطق اليوم
فظائعى ؟ أتبعث من قبورها آثامى ؟
أتتركنى أمتى أعيش بقية أيامى فى هذه
الظلمات ، فى هذا الجحيم ، ومع هذه
الخيالات المرعبة الهائلة ؟ لا . لا . سأريكم
كيف يكون الانتقـــام ، أيها الملاعين
(يحاول خنق نفسه) عبد الحميد ! أتسطو
على شخصك المقدس بيدك الأثيمة ؟
ألا تشفق حتى على نفسك ؟ عد إلى رشدك ،
اصرف عنك هذه الهواجس والأوهام . نعم ،
أنا عبد الحميد . وهذا هو قصرى ، وهؤلاء
هم وزرائى بل عبيدى ...
إلى البوسفور بالسجناء الذين جئتنى البارحة
بأسمائهم !

وهل تعود أنت ؟ ما بالك لا تكلمنى ،
وأنت يا أبا الهدى ؟ أما سمعتمونى ؟ مابالكم
لا تجيبون ؟ يا لله ! ومن أنت ؟ أخى مراد ؟
أجئت تشاركنى سجنى ؟ أجئت تغسل الدم عن
يدى؟ أجئت تنثر على أحزانى دموع أحزانك ؟
ترانى ورثت سجنك ، وأحييتُ بلاءك فى بلائى .
فمن يا ترى يرث سجنى ويحمل أوزارى ؟ أخى
مراد ، ومن هذا الذى معك ؟ مدحت باشا ؛
أخرجت من قبرك لتجعل لى مكاناً فيه ؟ أبُعثت
من القبر لتبرهن على خلود الحرية والأحرار ؟
وهؤلاء الأشباح الذين يسخرون منى ويضحكون؟
أراهم يشيرون بأيديهم كمن يريدون . . .

صوت فى الظلمة : الانتقام . . . الانتقام . . .

عبد الحميد : آه ! يالها من أصوات مرعبة هائلة . اقتربوا
إذاً منى . ابصقوا فى وجهى . أيلذ لكم هذا
الانتقام ؟ خذونى . أغرقونى اقتلونى . آه !
أحس بثقل الأمواج فوق رأسى . أفى البوسفور
يموت عبد الحميد ؟ ربى أفى البوسفور تدفننى ؟
أمع هؤلاء الأخساء تحشرنى ؟ . .. مدحت ،

أنا عبد الحميد مولاك ! مراد ، اسمع
عبد الحميد أخاك ! مدحت ، قل كلمة
لهؤلاء من أجلى . هات يدك ، وزيرى .
هات يدك ، أخى ، أترفضون اليد التى
كنتم تقبلونها صاغرين ، أتأبون مصافحتى ؟

صوات فى الظلمة: الانتقام ، الانتقام !

عبدا لحميد : أجل هو الانتقام . أواه ! أحس بسهام
من النار تشق فؤادى . أحس بشىء يأكل
من عينى ، بل بشىء ملتهب ينقر فى
خدى . أواه ! أحس بأصابع من حديد
تضغط على عنقى . أواه ! غرقت . . . لله من
البوسفور ... إنى أختنق ... إنى أموت....

(يقع مغشياً عليه)

إكليل العار

ما ودع حين ولى ، ولا أحد من رفاقه الجالسين حول منضدة مربعة بساطها أخضر رفع إليه نظراً أو فاه بكلمة دعاء أو عداء. نقفَ أحدهم المنضدة بأنامله والوجه منه أصفر من السهر والهم . فماثله الآخر ، فرمى الثالث الورق من يده . وزادُ كل منهم ما اجتمع فى وسطها من حجارة العاج أو الأزلام السوداء والحمراء والبيضاء . أدير الورق واستؤنف اللعب ، وأخذت الأزلام تنتقل من أطراف المنضدة إلى وسطها . « احترق » الثانى ولكنه ظل فى كرسيه يراقب الجولة الأخيرة بين رفيقيه .

والسكوت سائد كأن غرفة القمار معبد أو بيت مهجور دخله اللصوص . تجسس كل من اللاعبين ورقه والعين منه جامدة غائرة ، واليد ترتجف . نظر كل منهما إلى صاحبه نظرات منكرات مختلسات فيها تفرس وفيها افتراس . وشرع كل منهما يضاعف أزلام الآخر حتى كاد ينفد ما بين يديه منها . غربل كل منهما حظه من الورق الذى بيده فأسقط الأول

ورقة وأسقط الثانى ورقتين ، وبينا هو يفعل ذلك حانت منه التفاتة ، فخامره منها الريب فاستشاط على الفور غيظاً ، ونهض واقفاً يهم بالخروج .

فسأله صاحبه ما بالك ؟

فأجاب وقد رمى الورق من يده : قد تواطأتم على .

— أنت مجنون .

— أنت قليل الشرف .

— احفظ أدبك . أنا والله لا أبيع شرفى بمال العالم .

— بعته الليلة بعشرين دولاراً . عيب عليك .

— من كان مثلك لا يستحق أن يلعب مع الناس .

— من كان مثلك أنت . . .

وانحنى فوق المنضدة ليكمل الإهانة بيده فحال دونه صاحب المنزل لائماً مؤنباً .

— عيب علينا يا ناس . واجب أن نقتدى بتوفيق زيدون المقامر الشريف النفس . فإنه إذا خسر سكت ، وإذا ربح لا يتبجح . . . عيب عليكما .

وبينما هو يؤنب صديقه ، وكل منهما — وقد ثاب إلى رشده — يعد أزلامه ، كان توفيق زيدون نازلا الدرج منكس الرأس ، كاسف البال . يده فى جيبه الفارغة ، ونفسه الملتهبة فى يده .

وما قيمة نفسه وهو لا يملك فلساً واحداً ؟ وماذا عساه يصنع وقد لجأ إلى آخر الحيل فكان فيها مدحوراً ؟ إلى أين يذهب بهذه النفس المحترقة المتقلصة السوداء ؟ سؤالات كان يرددها وهو خارج من البيت لاعناً القمار والمقامرين .

راح تائهاً فى أسواق المدينة كمركب لا شراع له تتقاذفه الرياح . وقف على منعطف الشارع فشاهد الأرتال تمر أمامه كأنها أشباح وكأن ضجيجها أصوات العفاريت . رفع رأسه وإذا بالساعة فى الكنيسة تعلن الثانية بعد نصف الليل .

أيعود إلى غرفته ؟ أيلجأ إلى وحشة الوحدة وظلامها ؟ أيداوى نفسه ببلسم الرقاد ؟ لا.لا.رصاصة تسرع به إلى الجحيم خير من هذا .

والحقيقة أنه استحب الموت . ومر فى قلبه خاطر الانتحار مرور السحاب ، فظل برهة أسير هواجس مريعة . تتجاذبه نزعات أثيمة لا تخلو من قصد شريف . على أن قصده الشريف كان كغنمة بين ذئاب كاسرة أو كملاك بين زمرة من شياطين أفكاره .

لبط الأرض برجله واللعنة تخرج من فمه ، وشياطينه تومئ إليه أن اتبعنا . تبعها صاغراً ، فنزل الدرج إلى سكة الحديد تحت الأرض . وركب القطار السريع الذى يخترق قلب

المدينة ، بل ينساب كالحية تحت أضلاعها . وكانت نفس توفيق زيدون مثل ذاك القطار تتسارع أمواجها السوداء بين أنوار لقصد شريف صفراء ضئيلة ، تبدو وتختفى كالبرق ، مثلما ترقص أنوار النفق الزرقاء والحمراء ، والقطار بين صفوف منها يقعقع ويضبج ، فتردد صداه الألوف من عمد الحديد القائمة تحت قصور المدينة .

نزل فى محطة وسط البلد ، واجتاز بضعة شوارع ، ثم وقف عند باب فى أحدها يقرع الجرس .

أطلت بعد هنيهة فتاة من الشباك تسأل من الطارق . فهمس توفيق باسمه . فراحت متأففة تكبس زرًا يفتح الباب . ولم تلبس غير قميص النوم لتستقبل صديقها .

ما سلم توفيق حين دخل المنزل بل سار توًا إلى غرفة فيه مفروشة بالسجاد ، أثاثها يجمع بين البساطة والفخامة ، ورمى بنفسه على كرسى قرب البيانو ، وهو لا يدرى ما يقول .

أخذ الفتاة العجب فسألت قائلة :

ــ ما بالك تجيئنى هذه الساعة ؟

ــ لأننى . . .

ووقف يشعل سيكارة .

ــ ماذا جرى يا عزيزى ؟ هل أنت مريض ؟

– بل يائس من الحياة .

– أطلعنى على شيء جديد من أحوالك .

– سقطت أسعار الأسهم اليوم فخسرت كل مالى .

فقالت لوسيل باسمة وهى لم تزل واقفة أمامه فى سربالها الشفاف :

– جئت تمزح إذاً .

– ليس وقت مزاح .

– وما علمى يا عزيزى توفيق أنك ذو ثروة !

– ثروة ؟ ثروة؟ إن مئة دولار عند مثلى ثروة كبيرة . فقد تجلب المئة دولار ألوفاً من الدولارات .

– وقد تجلب . . .

فقاطعها قائلا :

– ما لم أطلعك عليه فى ما مضى .

– قد أطلعتنى مراراً فى مثل حالك الآن على المهم من أمرك . هل لك رغبة فى كأس من الوسكى .

– لعن الله الوسكى . كيف أحوالك اليوم ؟

– كما ترى . نمت باكراً فأيقظتنى باكراً . وهذا من قواعد الصحة .

– وماذا يهمنى من ذلك ؟ كيف أحوالك المالية ؟

ــ أسوأ من حالك يا عزيزى .

ــ تكذبين . تعالى قبلينى .

ــ أقبلك إذا كنت لا تهينني .

ــ أريني إذاً حافظة نقودك . أما زارك أحد هذه الليلة ؟

ــ قلت لك إنى نمت باكراً . وأقسم بالله . . .

ــ يمينك لا تقنعنى . أرينى حافظتك .

دخلت لوسيل غرفتها وعادت بعد هنيهة بحقيبة صغيرة رمتها فى حجره ، ففتحها توفيق وأجال فيها يده وعينيه ، ورماها إلى الأرض غاضباً ناقماً .

ــ أنت كذابة محتالة

ــ وأنت قليل الشعور قليل الإيمان ، بل أنت بربرى . وقد سألتك أن لا تزورنى فى آخر الليل ستراً لحالى . أفلا تعلم أنى أشتغل فى النهار فتاة محصنة مكرمة ولا أحد يظن بى ظناً سيئاً ؟ واجب أن أحافظ على شرفى وأصون عرضى تجاه من أشتغل عندهم فى الأقل . لست مستهترة مثلك . ولى أمل بالتخلص مما أنا فيه خارج عملى اليومى . ولو كانت أجرتى تكفينى لألبس على الأقل مثل سائر البنات لما تنازلت إلى عمل ليلا آتيه آسفة حزينة . بل لما ملت إلى غيرك من الشبان . قلت لك ذلك مراراً وأنا عالمة أنه لو كان بإمكانى أن أكتم

حبي لكان خيراً لى وأنفع . ولكنى صريحة القول ، سليمة القلب . وهذه بليتى . لست خداعة ولست كذابة ، ولست محتالة . أنت تعلم ذلك ولا يردك هواك عن إهانتى . ألم أسعفك فى ما مضى ؟ ألم أقاسمك ما كنت أملكه من المال ؟ بل طالما أفرغت حافظتى بين يديك . والآن تجيئنى فى آخر الليل فتشتمنى وتهيننى لأن حافظتى فارغة . صدقنى ياعزيزى توفيق إذا قلت إنى لا أقوى على ردك وصدك . ولو كان لدى ريال واحد الآن لأعطيتكه مسرورة .

اقتربت لوسيل من صديقها فجلست على ركبته تلاطفه وتداعبه وقد كانت تخشى أن تغيظه لأنه مطلع على حقيقة أمرها .

توفيق زيدون شاب شديد البنية ، أسمر اللون ، أسود العين والشعر ، وسيم الوجه ، طويل القامة ، طويل الأنف دقيقه . فى فمه سيماء الشهوة والخشونة . وفى ذقنه القصير المائل إلى عنقه ما يدل على ضعف الإرادة .

ولوسيل فتاة أميركية ، صافية البشرة ، ذهبية الشعر ، زرقاء العين دقيقة الأطراف ، متناسبة الأعضاء ، لا تتجاوز العشرين من العمر . فى شفتها السفلى بروز يجعل فمها كفم الطفل فيه سذاجة وجمال . وهى لطيفة المزاج سهلة المراس .

نفسها فى الحب كجدول من الماء المعين نهاراً وكالنهر الطامى ليلا . اجتمع بها توفيق زيدون فى المخزن الذى تشتغل فيه ، فشغفت به ومحضته حبها . وأطلعته بعدئذ على خفى أمرها فشجعها على ذلك بدل أن يردعها . وكان إذا خسر فى القمار يلجأ إليها .

أما لوسيل فمثل سائر أخواتها من الشقر الحسان ، تهيم بحبيبها ساعة يكون معها ، وتكاد أن تنساه إذا غاب . وهى مخلصة فى كلا الأمرين ، عاملة بناموس طبيعى يملك قلبها ومزاجها .

فلما جلست على ركبة توفيق تداعبه ألانت من نفسه ، وأنسته بعض بلائه . فرفع إلى صدرها يداً راغبة كأن النار تتوقد فى أناملها ، وقام وفى عينيه رغبة أشد اتقاداً .

وبينا هو فى السرير أمال نظره من جمالها الذهبى إلى المرآة وراء السرير يتأمل جمالها الخيالى . فرأى هناك خزانة الثياب منعكسة فيها ، وعلى بابها الذى نسيت لوسيل أن تقفله تماماً لفافة زرقاء من الأوراق المالية ، كانت قد أخرجتها من حقيبتها لتضعها فى جيب ثوب لها ، فأخطأت المقصد ولم تدر ، فسقطت اللفافة على الأرض .

ولما نهض توفيق ليلبس ثيابه ، خرجت لوسيل من الغرفة فسارع إلى باب الخزانة ، فالتقط ما كان على الأرض من المال ،

ووضعه فى جيبه قائلا فى نفسه : كذابة ، عاهرة .

ولما عادت لوسيل إلى الغرفة قبلها قبلة باردة وودع .

ركب القطار تحت الأرض ، ولم يكن فيه تلك الساعة غير رجل واحد فأخرج المال ليعده . عده فرحاً مستبشراً وهو يردد فى نفسه : كذابة ، عاهرة .

ثم وضعه فى جيب صدرته . وأخذه النعاس من شدة الضنك والتعب فنام ، فوقعت من اهتزاز القطار قبعته على الأرض ، فالتقطها رفيقه متلطفاً ووضعها قربه .

ولما وصل توفيق إلى غرفته كان عقرب الساعة فى قبة الكنيسة مائلا إلى الرابعة . فنام مطمئن النفس هادئ البال حتى ظهر اليوم الثانى. فنهض إذ ذاك يلبس ثيابه. ثم ذهب إلى المطعم ليتناول الغداء ، فأكل هنيئًا كما نام ، ومد يده إلى جيبه ليدفع ما عليه ، ففتش عن المال ثم فتش فلم يجده .

يخسر المرء نصف ثروته فى الأشغال أو فى القمار ولا يأسف. ويبذل الكثير فى سبيل ملذاته أوفى ضيافة أصحابه مسروراً . ولكنه إذا أضاع ريالا واحداً يقوم له ويقعد ويظل أياماً حائراً لا يحسن عملا .

أما توفيق زيدون فلم يكن فى أية حال من الأحوال ليحسن عملا إلا إذا استثنينا القمار . وقد طالما خسر آخر فلس فى

اللعب وهو مالك نفسه ، صابر على تمرد حظه . ولكن خمسين ريالا التقطها من غرفة حبيبته بل سرقها ثم أضاعها ببلبلت البال وشتتت منه ما بقى من آمال .

عاد إلى غرفته كالمجنون يفتش زواياها علّ المال سقط منْ جيبه وهو ينزع أو يلبس ثيابه . وهذا معقول . إلا أن في المعقول ظنـًا يخطئ أحياناً . ثم فتش فى جيوب أثوابه المعلقة فى الخزانة كأن يداً سرية سحرية نقلت المال إليها . ثم فتش فى دروج خزانة أخرى وهو لم يزل متمسكاً بخيط من الأمل رفيع انقطع عند الدرج الأخير الذى لم يكن فيه غير مسدس صغير .

أخذ يدير المسدس بين يديه ، ووضعه أمامه على المائدة . ثم جلس على كرسى يتأمل الماضى والحاضر من حاله . عشر سنوات قضاها فى أميركا ولم ينجح فيها بعمل من الأعمال . شارك أخاه فى التجارة فصرف فوق حصته فى دوائر القمار والخلاعة وانفصل عنه . وهو يكره أخاه كرهاً شديداً . بل البغض متبادل متساوٍ بين الأخوين . وأخته سليمة التى تبيع البضاعة الشرقية فى المصايف طالما مدته بالمال . على أنها اعترضته يوماً فى أمر فتاة ولع بها فأغلظ لها الكلام وطردها من بيته . أما أصحابه ، بل رفاقه فى اللعب فهو مدين لأكثرهم ولم تعد

له الجرأة أن يسألهم حاجة ، والحق يقال إن أبواب الفرج أقفلت كلها فى وجه زيدون إلا باباً واحداً طرقه ليلة أمس . ولولا الصدفة لعاد من بيت لوسيل كما خرج من بيت القمار . على أن الصدف مثل الدهر متقلبة خائنة ، فلم تكد تريه باب الفرج حتى أقفلته فى وجهه . أعطته خمسين ريالا فى آخر الليل وسلبته المال فى الصباح !

الصدف ؟ إنما هى يد القضاء . دخل توفيق زيدون نفسه يجدد النظر فى ذكريات هناك ، مثلما يعود العاشق الولهان إلى رسائل حبيبته يقرأها ويمزقها . مزق ذكريات أخيه غير آسف عليها ، مزق ذكريات أخته . مزق ذكريات ألعابه وخلاعته . محاها كلها من لوح نفسه الأسود العتيق . ولكن ذكرى أبويه استرعته فوقف عندها واليد منه ترتجف . فقد أوصته أمه قبل سفره إلى أميركا أن لا يقترب من منضدة القمار . وقد طالما قال أبوه : المال الحرام لا يثمر . ذلك لأن داء القمار كان متفشياً فى آل زيدون فى الوطن . ولكن توفيقاً لم يكترث بوصية والديه . وما فكر فيها آسفاً حزيناً قبل هذه الساعة .

القمار ، والموبقات التى هو فيها من جراء القمار ، وتلك الفتاة المسكينة التى كانت تبيع جسدها لأصحابه وتقاسمه

كسبها . الله منها . أتوفيق زيدون يصل إلى هذا الحد من السفالة ؟ لم يكن قبل اليوم ليفكر بحقيقة فعلته . لولا خسائره فى القمار لما التجأ والحق يقال إلى لوسيل . على أنه أفاق فى هذه الساعة من سكرته . نفر من ضلالته . وود أن يبتعد عن الموبقات التى طالما خاضها طرباً حبوراً . انفتحت فيه فجأة عين الروح فهاله من ذلك أمره . رأى نفسه ابناً عاقا . رأى نفسه سافلا . يا للفضيحة ويا للعار .

جلس على الكرسى وأخذ المسدس يديره بين يديه . وبينا هو يداعب الموت — يراود رصاصة فيها الخلاص مما هو فيه — قرع بابه قرعات سريعة شديدة فوضع المسدس على المنضدة ، وراح يفتح الباب ، فإذا بلوسيل والاضطراب باد فى عينيها . أخذته من رؤيتها الدهشة . بل أحس بقشعريرة فى جسده ، كأن كأس ماء بارد سكبت على نفسه الملتهبة ، فأطفأت فيها نزعة الانتحار ، وردته إلى حاله كسيد الفتاة وولى أمرها . أما لوسيل فلم تمهله أن يسألها الغرض من مجيئها . دخلت غرفته تقول :

— أنت لص . أنت مجرم . وقبل أن أشكوك إلى البوليس جئت أعطيك فرصة لتخلص نفسك . كذبت الليلة البارحة . فقوصصت على كذبى . خبأت ما كان لدى من المال فتلصصتنى

وسرقت . لم يزرنى أحد سواك بعد ليلة البارحة . نعم أنت سارق مالى وإذا كنت لا تعيده إلىّ الآن أشكوك إلى البوليس .

ــ أنت مجنونة .

ــ لا يهمنى . أسألك أن تعيد إلىّ مالى وإلا . . .

ــ أجئت تهددينى فى بيتى ؟ والله لأشُجَّنّ دماغك إذا كنت لا ترعوين .

واقترب إذ ذاك من المنضدة يمد يده إلى المسدس . فخافت لوسيل وغيرت لهجتها .

ــ يا عزيزى توفيق ، أنا فى حاجة الآن إلى المال أكثر منك . قد رهنت فى الشهر الماضى خاتماً هو أعز الأعلاق لدى . هو هدية من أمى يوم ميلادى ــ آخر ميلاد قضيته وإياها . وأحب أن أسترجعه. فإنى منذ رهنته والنحس يكتنفنى . فأشفق علىّ واكتفِ بما أسلفتك من الحب .

وتناولت منديلا وأخذت تمسح الدموع المتساقطة على وجنتيها الورديتين ، ثم قالت :

ــ مذ عرفتك حتى الآن لم أسألك دولاراً واحداً ، بل أنت مدين لى .

ــ يا بنت الخنا ، جئت تهيننى فى بيتى ؟! والله . . .

ــ لا . لا . لا أحب أن أذكرك بذلك . ولو كنت تستطيع

القيام بمعاشى لما ملت إلى أحد سواك . بل لما قبلت فى بيتى غيرك من الناس . والآن جئت أرجوك أن تعيد إلىّ ما أخذته منى الليلة البارحة . هب أنى أسألك قرضاً فى ساعة ضيقتى ، فإنى لم أدفع أجرة منزلى منذ شهرين ، أقسم بالله . وصاحب البيت يهددنى بالطرد . فإذا كنت لا ترثى لحالى ، فما معنى صداقتك، بل ما معنى حبك؟ أخذت منى خمسين دولاراً . أعد إلىّ نصف القيمة فى الأقل .

ـ اعلمى أنى لم آخذ منك دولاراً واحداً . وإذا عدت إلى هذه التهمة أبعثر دماغك برصاصة من هذا المسدس . وإذا كان هذا قصدك من زيارتى فتفضلى .

وأومأ بيده إلى الباب .

ـ يجب أن أدفع أجرة غرفتى

ـ صاحب البيت ينتظر .

ـ يجب أن أشترى فستاناً لأمى .

ـ لست موكلا بأمر أمك .

ـ أتطردنى إذاً من بيتك .

ـ اشكرى ربك إذا خرجت سالمة . أنت أول من اتهمنى بالسرقة وقد عفوت عنك . اخرجى ، ولا ترينى وجهك فيما بعد .

اقتربت لوسيل من المنضدة وفى نيتها أن تقبض على المسدس اتقاء للشر ، فكان توفيق أسرع منها فقبض على يدها بيمناه ، ولطمها بالأخرى على وجهها .

— يا بنت الخنا : تحاولين قتلى أيضاً .

— تسلبنى مالى ، وتهيننى ، وتضربنى وتطردنى من بيتك — ستندم ، يا توفيق زيدون . على فعلاتك هذه . ستندم يا لص . يا وحش ، يا . . .

وخرجت من غرفته مسرعة .

ناداها توفيق — فتح الباب وسألها أن تعود فلم تجبه . لبس قبعته وتبعها . ولكنه لم يرها فى الشارع . راح إلى بيتها فوجد الباب مقفلا فبات ينتظر أمام الباب علها تعود فخاب أمله . فعاد إلى غرفته يائساً ، وقد أخذه شيء من الندم على ما فعل . حدثته نفسه ثانية بالانتحار . فكتب كلمة إلى أخته يودعها ويستغفرها ، وأخذ المسدس قائلا : على الدنيا السلام ، ولكنه حين رفع آلة الموت إلى رأسه متردداً دق جرس التليفون ، فوضع المسدس ، وفى نفسه بعض الارتياح إلى صدفة وقفته مرة ثانية عن قصده ، وراح يجيب للنداء .

الصوت صوت لوسيل .

— ماذا تريدين ؟

ــ ندمت على ما بدا منى ، اغفر لى ، وتعال الليلة تسمع ما يسرك .

ــ ماذا جرى ؟

ــ سأخبرك عندما تحضر .

أخذه العجب من أمرها . هل تضمر له الشر ؟ هل تدعوه لتغدر به ؟ أو هل هى صادقة فى ما تقول ؟ إن كان الأول ، فتوفيق زيدون لا يخشى تهديد فتاة أو غدرها ، وإن كان الثانى ، فقد يكون له فى شدته سبيل إلى الفرج . ثم عاد إلى نفسه يؤنبها على ما فعل . ندم ندامة حقيقية على معاملته لوسيل تلك المعاملة ، فقال يحدث نفسه :

ــ خلصتنى من الموت مرتين ، فينبغى أن أحسن فى الأقل معاملتها . ولكنه أخذ العدّة لكل ما قد يحدث ، فراح يقابلها تلك الليلة والمسدس فى جيبه .

* * *

عادت لوسيل إلى شغلها فى المكتب أصيل ذاك النهار برغم ما جرى فى منزل توفيق زيدون . عادت إلى شغلها برغم اضطرابٍ ملك نفسها وبرغم يأس كاد يذهب برشدها . على أنها وقفت هنيهة

فى باب دائرة الشرطة ولم تدخل . وقفت خائفة وذهبت حائرة . فدخلت المكتب كليمة الفؤاد ، مشتتة البال ، أسيرة الغم والهواجس . وإذ جلست إلى الآلة الكاتبة لتباشر عملها ، أحست بصداع شديد غشى بصرها ، فبدت صفوف الأحرف أمامها كالأزرار البيضاء وقد ذاب سواد ما نقش فيها ، فلم تكد تميز الألف من الباء ، ولا الأعداد من أحرف الهجاء .

كتبت سطراً فعضت شفتها غيظاً ، ونزعت الورقة من الآلة ومزقتها . حاولت العمل ثانية ، وأناملها ترتجف ، فمزقت الصفحة الثانية ، ثم الثالثة والرابعة . توقفت عن العمل وأخذت تصعد الزفرات ، وشرعت تفرك يديها وجبينها علها تنتعش فتملك حواسها . ثم أخرجت من حقيبتها القلم الأحمر ، وعلبة المسحوق ، والمرآة الصغيرة فدهنت شفتيها ، وطلت خديها ، وهى تحاول أن تزدرى همها وتنسى ما حل بها .

وكانت رفيقتها تنظر إليها شذراً ، وتضحك فى سرها هازئة . ثم همست فى أذن الكاتب كلمة فأجابها قائلا : ولا ريب بذلك . لم تنم الليلة البارحة .

أما الكاتب هذا فكان قد استطلع خبر لوسيل ، عملا بإشارة المدير ، وتحقق أمرها . فنهض حين رآها فى هذه الحال ودخل على المدير يقول : يظهر أن هذه الفتاة مريضة ،

أو أنها لم تنم الليلة البارحة ، وهى لا تستطيع قط عملا .
فأمر المدير بأن يأتيه بحسابها . ثم ناداها إلى غرفته.
ــ لماذا لم تجيئى إلى المكتب صباح هذا النهار ؟
ــ كنت مريضة . ولم أزل أحس بصداع شديد أليم .
ــ الأحسن إذاً أن تعودى إلى بيتك . وقد تكونين فى حاجة إلى المال لتستشيرى الطبيب فهذا ما تبقى من أجرتك .

أخذت لوسيل المال وهى تشكر المدير الذى استأنف كلامه قائلا : ولم نعد فى حاجة إليك

هذا ما كانت تتوقعه . فلم تسأل المدير السبب فى طردها . ولا همها أمره . على أنها تيقنت أن الكاتب قد وشى بها ، وفضح أمرها ، بعد أن تظاهر بحبها واكتسب ثقتها .

أجل ، قد تحققت لوسيل السبب فى طردها ، وشعرت لأول مرة بحقيقة حالها وسوء مصيرها ، فخرجت من المكتب وهى لا تكاد ترى ما حولها من شدة الغيظ واليأس والكمد ، وذهبت توًّا إلى منزلها ، فرمت بنفسها على السرير واسترسلت إلى البكاء . بكت كطفل فبللت الوسادة دموعها .

حياتان ، حياة خير وحياة شر ، لا تجتمعان فى شخص واحد .

جلست تؤنب نفسها وهى تردد هذه الكلمات . وشرعت تفكر

فى ما جرى فى يوم واحد من حياتها المزدوجة . سرق مالها . أهينت . ضربت . فقدت وظيفتها . وصاحب البيت فوق ذلك يهم بطردها إذا لم تدفع المتأخر من ثلاثة أشهر .

وماذا لديها من المال ؟ خمسة دولارات فقط ، خمسة دولارات لا تكفى أجرة النقل إذا أذن لها صاحب البيت أن تنقل فرشها . وإذا نقلت إلى بيت آخر فماذا عساها تفعل ؟ أتبحث عن وظيفة أخرى ؟ لم يعطها المدير شهادة بحسن السلوك . ولم تزل تذكر كم قاست من العذاب أول مرة بحثت فيها عن عمل فى المدينة .

حياتان ، حياة صلاح وحياة إثم ، لا تأتلفان فى نفس واحدة .

ستهرب إذا من الخدمة — من المكاتب — من المديرين واستبدادهم . ثم ماذا أتستمر فى مسيرها المشين المعيب — فى طريق الإثم والعار ؟ أفى السوق وفى القهوة تطلب رزقها ؟ فكرت فى ثمار ليلها وفى الحلو والمر من كأس إثمها . فكرت فى من أخلصت له الود وكيف يسرقها ، ويهينها ويضربها ، ويطردها من بيته . من وثقت به يخونها ، ومن اشتروا جسدها يهينونها ويزدرونها . أجل ، إن الشبان الذين يطاردون البنات فى الأسواق ، ويستغوونهم فى القهاوى ، لكذلك الكاتب الخائن

ولكذلك اللص توفيق زيدون . فماذا عساها تفعل؟

حياتان ، حياة طهر وحياة عهر ، لا تجتمعان فى امرأة واحدة .

أتعود إذاً إلى بيتها . أتحتمى فى ظل أمها مستغفرة مسترحمة؟ إنها تخشى أمها ولا تستطيع أن تقيم وإياها . فلما كانت فى البيت كان أخوها الوحيد سلواها هناك . أما وقد سافر إلى أميركا الجنوبية فقد سئمت الإقامة فيه ، وخرجت غير آسفة تؤم المدينة . ناهيك بأن الإقامة فى القرية لم تعد تروقها وقد ألفت العيش فى المدينة .

إذن لا العمل نهاراً فى المكتب ، ولا السير ليلا فى طرق الإثم والعار ، ولا الرجوع إلى البيت؟ فكرت لوسيل ملياً فى أمرها ، ووطنت النفس أن تظل فى المدينة ، أجل . تشكو توفيق زيدون إلى الشرطة ، ستشكوه إلى الشرطة . ولكن الريب ملكها فى كل شؤونها . التردد أقعدها ، الخوف قيد منها العزم والنشاط . فهى إذا شكت السورى تفضح أمرها بيدها . طال النزاع فى صدرها فكاد يقتلها . وكل نزاع نفسى لا يجلو الروح والفكر يولد اليأس والقنوط . واليأس فى مثل هذه الحال أشد من الإيمان قوة ، وأعظم من الموت هولا .

أشهر اليأس سيفه فى لوسيل فنهضت ملبية . أجل ، ستقتص بيدها من السورى اللئيم . سينال من يدها جزاء فعلاته. خمسة دولارات هى كل ما تملك، وستحسن استخدامها . قد أغلقت أبواب الرزق والفرج فى وجهها فستموت فى الأقل شريفة النفس . ستموت بعد أن تذيق السورى جزاء إثمه .

لبست قبعتها وأسرعت إلى مخزن تبتاع مسدساً بالمال الذى قبضته أجرتها، وعادت إلى البيت فخاطبت زيدون بالتليفون تسأله أن يزورها تلك الليلة . ولو علمت بقصده تلك الساعة لندمت على إفسادها عمله. لو كان لها أن تراه والمسدس بيده لتركته وشأنه وشكرت ربها . ولكنها الأقدار تلعب بالناس لعب الأكر .

دخلت لوسيل مطبخها الصغير لترى ما عندها من حواضر البيت للعشاء ، فوضعت إبريق الشاى على وجاق الغاز ، وبينا هى تفتح علبة من الفاصوليا المطبوخة لتسخنها ، قرع الجرس فراحت تفتح الباب ، فإذا هناك رجل حياها تحية الأحباب هاتفاً : «هالو» لوسيل .

وقفت لوسيل مدهوشة وهى لا تكاد تصدق نظرها .

— وليم . وليم .

ورمت بنفسها عليه تعانقه . فعانقها وقبلها تكراراً .

ــ ثم دخلت وهى آخذة بيده ، فأجلسته على الديوان وجلست إلى جانبه . فقبلها وليم ثانية وهو يردد اسمها ويربت خديها .

وليم أخو لوسيل شاب لا يتجاوز الثلاثين سنًّا ، طويل القامة نحيف الجسم ، عصبى المزاج ، حاد النظر روحانى العين ، خطواته تدل على ثقة له بنفسه ، وحديثه يدل على إيمان له بالناس ، وهو يحب لوسيل أخته الوحيدة حبا جما ، ولا يريدها بعيدة عنه إلا إذا كانت متزوجة وسعيدة فى زواجها .

وشد ما كانت دهشة لوسيل ، وشد ما كان ابتهاجها بمشاهدة أخيها بعد تغيب طويل الأجل .

ــ وليم عزيزى . متى عدت ؟ وكيف علمت أنى هنا ؟ ومن أعطاك عنوانى .

ــ عدت فى الأسبوع الماضى . ومنذ وصولى ، وعلمى أنك تركت البيت ، وأنا أبحث عنك . الفتاة التى تهرب من بيتها يا عزيزتى لا تراسل أحداً فى قريتها . ولكن ابن القسيس جارنا هجر القرية أيضاً . والقسيس أبوه عالم بمقرك وبما أنت تصنعين .

اضطربت لوسيل هنيهة عند سماعها « وبما أنت تصنعين »

فامتقع لون وجهها . ولكنها اطمأنت حين واصل أخوها حديثه قائلا : وهل أنت راضية بوظيفتك وبأجرتك ؟ يظهر من هذا البيت ، ومفرش منزلك وأثاثه . أنك فى يسر وإقبال . إلا أنه مهما كانت أجرتك ، خمسة وعشرين ريالا أو خمسين فى الأسبوع . فأخوك وليم لا يرضى بها . ولا يريد أن تقيمى فى هذا البلد بعيدة عنه . جئت يا أختى الحبيبة لأعود وإياك إلى البيت . واعلمى أنى نجحت نجاحاً باهراً فى سفرى إلى البرازيل . لذلك وطنت النفس أن أؤسس عملا لنفسى فأحب أن تكونى معى إلى حين زواجك . أنا عالم بأشراك المدينة يا عزيزتى لوسيل وبموبقاتها . وقلما تسلم ابنة غريبة فيها .

صعدت لوسيل الزفرات واغرورقت عيناها بالدموع .

— ما بالك تبكين ؟ ألا تعودين إلى البيت ؟ أو لست ترغبين فى بيت تكونين سيدته ؟

— لا يا أخى وليم لا أعود إلى البيت .

— ولماذا ؟

— لألف سبب .

— سبب واحد يقنعنى . وقولى لى لماذا تبكين ؟

— هل تعشيت يا عزيزى ؟

— لا .

إذاً تشاركنى العشاء الذى كنت أحضره لنفسى عند وصولك وبعدئذ أقص عليك قصتى .

وراحت لوسيل إلى المطبخ تحضر العشاء لها ولأخيها . وبينا كان وليم ينتظر فى غرفة الاستقبال وهو يجيل الطرف فى ما فيها من الأثاث والأعلاق ، استوقف نظره صورة على ظهر البيانو ، فإذا هى صورته وهو صبى ، وإلى جانبها بل وراء إطارها الفضى ، المسدس الذى ابتاعته منذ ساعة . فتحه وليم فإذا فيه ست رصاصات . ثم أعاده إلى مكانه دون كثير اكتراث .

وبعد برهة جاءت لوسيل تدعوه إلى غرفة الطعام .

ــ فرش منزلى ينبئ باليسر . ولكن مائدتى يا عزيزى وليم كما ترى .

ــ أتجوعين نفسك لتكسى جسدك مثل سائر البنات ؟

ــ ربما كان الأمر كذلك .

ــ ولِمَ لا نذهب إلى أحد المطاعم ؟ قومى تعالى معى.

ــ لا لا . أفضل أن أكون وإياك وحدنا.

ــ لتقصى قصتك . حسن هاتيها إذن .

أحنت لوسيل رأسها . ثم رفعت منديلا إلى عينيها .

ــ ما بالك ؟ وما الداعى إلى هذه الدموع ؟ أخبرينى

يا عزيزتى لوسيل ولا تكتمى شيئاً . فإنك تعلمين مقدار حبى لك . نعم . أنا لك فى كل حين . إذا كنت فى شدة فقد جئت أساعدك . وإذا كنتِ فى محنة . . .

ونهض إذ ذاك يقبلها ويربت خديها .

ــ أطلعينى على أمرك . اكشفى لى سرك . ولا تخفى عنى شيئاً . وكل ما أستطيع عمله من أجلك فأنا فاعله مسروراً ، تكلمى .

نهضت إذ ذاك لوسيل . وراحت إلى ردهة الاستقبال ثم عادت والمسدس بيدها ، فوضعته على المائدة أمام وليم . .

ــ هذه هى قصتى .

ــ لوسيل !

ــ نعم . هذه هى قصتى .

ــ وما معنى ذلك ؟ هل تنوين شراً بنفسك أو بأحد من الناس ؟ إذن قد جئت فى الوقت المرغوب فيه ، نعم . جئت أخلصك من نفسك . حيف عليك . حيف أن يفكر مثلك بهذه الأمور ؟ فإذا كانت هذه قصتك فقومى بنا نذهب إلى المسرح .

ــ لا . لا . إنى أنتظر رجلا هذا المساء .

ــ رجلا تنتظرين ؟ ومن هو ؟ من تنوين قتله يا ترى ؟

قال وليم قوله ضاحكاً . أما لوسيل فظلت ساكتة .

ـ كلميني يا عزيزتي . فقد حيرني أمرك والله . وهل لى أن أعرف من هو الرجل . وما عسى أن يكون شأنه ؟

اسمع يا عزيزى وليم أخبرك بما جرى ليلة أمس واليوم . ولكنى أستحلفك أن لا تسألنى أن أطلعك على سوابق حالى. وأرجوك أن لا تؤنبنى ولا تغير ظنك بى . فأنا أعلم مقدار حبك لى . ولكنك قد تجهل مقدار حبى لك . رسمك دائماً أمامى . وذكراك أثناء تغيبك لم تذهب يوماً من قلبي . ليس لى سواك فى هذا العالم ولا . . .

فقاطعها وليم قائلا : لا حاجة لهذه الديباجة . أخبرينى ماذا جرى ، ولا تكتمى شيئاً .

أجابت لوسيل طلبه . فأعلمته بما حدث فى عشرين ساعة مضت ، منذ مجىء توفيق زيدون الليلة البارحة حتى أصيل ذاك النهار . وكان وليم ، وهو يستمع حديثها ، جالساً فى الكرسى ، جامد العين أصفر اللون ، بل كان كتمثال من الشمع . ثم نهض من الكرسى فوراً ، وطفق يتمشى فى الغرفة منكس الرأس ، ويداه مضمومتان وراء ظهره . ظل كذلك بضع دقائق لا ينبس ببنت شفة .

تقولين إنه سرق مالك ، وضربك ، وهم بقتلك ، وطردك

من بيته ؟ لوسيل عزيزتي ، وعدتك أن لا أستطلع ماضيك في هذا البلد . ووعدتك ألا أؤنبك . ارفعي رأسك ، لوسيل ، ولا تبكي . كل ما أقوله يا حبيبتي هوذا : ليس الرجل وحده ملوم . ولكن غلطة الفتاة تغتفر قبل غلطة الشاب . وأنت أختي . أختي الحبيبة . لا شيء يزعزع حبي لك ، ولا شيء يغير حسن ظني بك . على أني أسألك أمراً واحداً . ولا أقبل منك فيه رفضاً . وإلا نسيتك . أنكرتك ، محوت من قلبي رسمك وذكرك . أسألك يا لوسيل أن تعودي معي إلى البيت حالا . قولي نعم . عديني بذلك .

ولكن قبل أن تفوه لوسيل بالجواب قرع جرس الباب، فذعرت وهتفت قائلة : هوذا .

ــ مكانك . أنا أقابله .

فصاحت : لا ، لا ، وقد أمسكته بيده .

ــ مكانك يا أختي ، وسكني روعك .

ــ ولكن أعطني المسدس . أعطنيه . وقابله إذا شئت .

ــ ليس هذا من شأنك . فقد انتهى أمرك والرجل ، وابتدأ أمري .

ــ أرجوك أن تعطيني المسدس .

ــ أرجوك أن تجلسي وتسكتي.

تفلّت من يديها، وراح يفتح الباب ، فإذا برجل هناك ، فخاطبه بصوت هادئ قائلا : أنت توفيق زيدون؟

ـ نعم .

ـ أنا أخو لوسيل . جئت أخبرك أنها لا تستطيع أن تقابلك . وهى تهديك هذا المسدس علك تكون فى حاجة إلى المال فتبيعه وتتصرف بثمنه . خذه . خذه .

لبث زيدون جامداً كالصنم . فلم يمد يده ، ولا حرك شفتيه . أما وليم فوضع المسدس فى جيبه ولطمه على خده بقفا يده .

ـ نذل . لص . جبان ، إذا لم تكن فى حاجة إلى المال فأنت فى حاجة إلى المسدس. خذه . تصرف به كيف شئت.

قال ذلك وأقفل الباب . ثم عاد إلى لوسيل يقول : إذا كان لا خير ألبتة فى هذا المخلوق فالمسدس ألزم له . إذا كان لم يزل فى نفسه بذرة صلاح واحدة فالمسدس لا يضره . لننسه الآن . انسيه يا عزيزتى لوسيل . انسيه . وتعالى إلىّ . تعالى أقبلك .

رمت لوسيل بنفسها على صدر أخيها فطوقها بذراعيه يقبلها وتقبله وعاشت ما تبقى من حياتها قربه .

أما توفيق زيدون فعاد إلى منزله يقول : وهذا إكليل العار . لا يتنازل أخوها أن يقتلنى . لايدنس يده بى . هذا إكليل العار

يا توفيق . ولكنى لا ألبسه ، لا والله . ولا أقتل نفسى قبل أن أصلحها . بلى سأضحى بها من أجل بلادى .

وكتب كتاباً إلى لوسيل يستغفرها . ثم ذهب إلى الدائرة العسكرية فى حيه ، فتطوع فى الجيش وسافر بعد بضعة أشهر فى فرقته إلى ساحة القتال – إلى خطوط النار .

* *

دخل إلياس نادر البيت متهللا . وكانت ابنته الوحيدة سلمى تعد له العشاء فهرول إليها والجريدة بيده يقول :
« قد عاد من فرنسا »

– « من يا ترى ؟ توفيق ؟ »

– « قد عاد توفيق سالماً ظافراً . راح نفراً مقامراً وجاء ضابطاً . على كتفه شريط الشرف ، كما ترين ، والوسام (صليب الحرب) على صدره » .

نظرت سلمى إلى الصورة ووجهها يتلألأ سروراً .

– « وأين هو الآن ؟ »

– « كلمنى بالتليفون من المحطة وقريباً يكون هنا . هل يليق عشاؤك ببطل من الأبطال ؟ »

– « ويلى لم أطبخ غير الأرز والبامية » .

– لا بأس . ارفعى هذا « المشمع » وضعى مكانه غطاء

الكتان ، ورتبي المائدة بما عندك من الذوق سأرجع حالا » .

قال هذا وخرج مسرعاً إلى دكان صديقه بتروكنتي الطلياني ، ثم عرج على اللحام ، وعاد وفي كلتا يديه رزمة كبيرة .

ـ « خذي يا بنتي . توفيق يستحق مأدبة . ولكن خير الجود الموجود ، كما يقول المثل » .

ثم قال خافضاً صوته : « هل زارك أنطونيو اليوم ؟ »

ـ « لا لم أره منذ أسبوع »

ـ « إذا زارك غداً يجب أن تكلميه بلطف يا بنتي . هؤلاء الطليان أشرار عند الغيظ » .

ـ أنا لا أخشاه . أنا لم أعده بشيء . نعم ، ذهبت وإياه إلى المسرح مرة واحدة ، كما تعلم ، ولكني لم أقبل منه هدية ما . حتى ولا سلة تفاح صغيرة . ويوم جاءنا مكتوب من توفيق وعلمنا بقرب رجوعه ، قلت لأنطونيو بصراحة إني لم أعد أستحسن ولا أستحل مقابلته » .

ـ « وماذا قال ؟ »

ـ « أخذ يهذي على عادته ولكني أعرفه . هو رجل طيب القلب »

عند ذلك قرع الباب ، ففتحه أبوها ، فإذا بتوفيق زيدون

واقفاً هناك ينزع قفّازه فصاح إلياس به مرحباً ، وأخذه بيده فجره إلى وسط القاعة هاتفاً : سرجنت زيدون . يا لطيف يا ستار . ولطمه لطمات على كتفيه ظهر تأثيرها فى ركبتيه . كنت محدوب الظهر يا . . . قبل دخولك الجندية فصرت كالرمح . وكان صدرك مثل القوس فصار مستوياً منفوخاً . وتلك السحنة الصفراء . . . وقرصه فى خده وهو يكمل كلامه : « ما أحلى الورد » . ثم لطمه على ظهره لطمة تلو الأخرى مستمراً فى ذا التحبب : « ما شاء الله . وصار يلبس القفاز يا عينى ويمسح حذاءه ويحلق كل يوم » .

بعد ذلك كله طوقه بذراعيه ، وطفق يقبله فى وجنتيه .

فقال توفيق ضاحكاً وهو يحاول الإفلات منه : « ما أحلى ساحة الحرب ياإلياس وما ألطف رش المدافع أليس فى البيت غيرك يا ترى ؟ دعنا نسلم » .

فقالت إذ ذاك سلمى : « الحق مع توفيق يا أبى . وهل هو لعبة يا ترى . أرح يديك فى الأقل » .

— « يا قرد . أيلام المشتاق إذا بث أشواقه ؟ » فقال توفيق وهو يصافح سلمى : « وكسر أضلاع المشتاق إليه. لا بأس. لا نلومه إذا كان لا يلومنا » .

فضحكت سلمى وهى تتقدمه إلى الديوان وتقول : « اجلس

وقص عليّ قصتك كلها . من الألف إلى الياء » .

— « قصة طويلة يا سلمى . ولا شك أنه جائع مثلى . فبعد العشاء إن شاء الله وغداً وبعد غد، يقصها عليك بالتتابع ؛ هاتى لنا العرق الآن وشيئاً من الماذا » .

امتثلت سلمى أمر أبيها وراحت تخدم الاثنين كأنها جارية وكأنهما أميران . بل كانت فى نظرهما وهى تروح وتجيء ، كطيف من أطياف الجنة ، خفيفة الحركة رشيقة القوام ، ساحرة اللحظ والابتسام . فلا لوم على إلياس نادر إذا غالى فى حبه لابنته وإعجابه بها . ولا عجب إذا قبل توفيق من أجلها كل لطمة من لطماته ، وضحك لكل نكتة من نكاته . فعند الكأس والحب والشوق واللقاء ، لا يرى المرء على الأرض غير ما فى السماء . ولو سئل سرجنت زيدون رأيه فى الكون بعد أن عاد من فرنسا ، وتعددت زياراته إلى بيت نادر ، لقال ولا شك ناسياً لوسيل والقمار وويلات الحرب : « الكون عال . من الطبقة الأولى » .

أما أنطونيو كاتالان بياع الثمار والحلوى فى الدكان الصغير أمام بيت نادر فجل ما يقال فيه إن رأيه فى الكون لا يليق بالنقل والنشر . ولا عجب . فقد حدث فى عالم أنطونيو ، يوم عاد السرجنت زيدون من فرنسا ، حادث خطير غيّر

فى نظره نظام الكائنات فأمست الحياة كثمرة بالية بين يديه أو كقشرة موز تحت قدميه .

أما فى أثناء تغيب توفيق فقد كان موفقاً فى عمله ، سعيداً فى يومه ، أرباحه كثيرة ، وآماله كبيرة وكل مصاعب الحياة لديه صغيرة حقيرة ، كيف لا وكان إذا نظر من باب دكانه إلى الشباك فى البيت الذى أمامه تجلت له آيات السحر والجمال فى لواحظ فتانة ، سرقت من سماء سوريا النور ، ومن فجر سوريا السهام ، وكم مرة ، وهو يصفف تفاحاته وموزاته ، رآها فى الشباك تنفض البساط ، وخدها كالتفاح ، وجبينها كجبين الصباح . وكم مرة وقف وسلمى فى الباب عند المساء ، وكان الكون أمامهما باباً للسعادة ، مفتوحاً على مصراعيه . بل حدث ولا حرج عن ساعات جلس فيها وإياها على الديوان فخيل إليه أن الأفلاك تدور تحت قدميه .

أما الآن ، فالويل لمن أقفل الأبواب ، والويل لمن أفسد عليه نظام الكائنات . والويل لك أيتها الفتاة السورية الناكرة الوعود ، العابثة بالعهود . الويل لك من غضب أنطونيو كاتالان والويل لمن تربع مكانه على الديوان وحل محله فى أعلى الجنان .

فها هوذا مسرع إلى بيت صديقه القديم بتروكنتى البقال ، وعينه تقدح ناراً ، ورأسه يلتهب بالمقاصد السامية لإصلاح

الكون . أجل ، ليس أنطونيو من الذين يخضعون مستسلمين إلى الأقدار ، أو يسكتون عمن يلعب على حسابهم بالنار .

وصل إلى الدكان فوجد من فيه ممن هم فى نظره آفات الزمان مشتغلين كل بما يهمه . بتروكنتى يعد نقوده ، وامرأته تقشر البطاطا للعشاء ، وابنهما الصغير القذر متربع على الأرض وهو يكسر بيديه ورجليه لعبة من اللعب . فود أنطونيو لو أن الكون كهذه اللعبة بين يديه .

ـ مساء الخير يا كاتالان . كيف حالك ؟

ـ لا يهمنى حالى . عندما تنتهى من عد أموالك أكلمك .

ـ انتهيت . وأنا مُصْغٍ اليك .

فدنا أنطونيو منه وانحنى فوق صندوق الزجاج قائلا : أمر مهم .

ففتح بترو باباً صغيراً بين رفوف الدكان وأدخله إلى غرفته الخصوصية .

أما بتروكنتى هذا فقد كان قبل الحرب العظمى عضواً عاملا فى جمعية (اليد السوداء) وكانت وظيفته أن يصنع لإخوانه ما يحتاجون اليه من أدوات التدمير والفناء . على أنه فتح أثناء الحرب مخزناً لبيع المأكولات فربح أرباحاً كثيرة ، ثم تزوج وندم على ذنوبه ، فصار بعد ذلك أباً صالحاً وتاجراً

محترماً . فلا عجب إذا عقد والكون معاهدة سلم أبدية .
ولا عجب إذا اكفهر وجهه عند ما سمع أنطونيو يقول :
« اقترعنا مساء أمس » وادعى أنه لم يفهم معناه .
— قد هجرت الجمعية يا كنتى ونسيتها . ولكن إخوانك لم
ينسوك . وهم ، وإن كانوا ناقمين عليك ، يغفرون ذنبك
إذا أجبت الآن طلبهم . . . بل قد فرض عليك . . . لا
تخف ، فالقرعة لنسف المعمل أصابت غيرك » .
فقال بترو وهو يحك رأسه بسبابته : « وماذا تريدون منى ؟ »
— ما لا يحسن عمله سواك . قنبله صغيرة ، مدمرة توضع
بعلبة من علبِ الشوكولاته ، وإليك الأجرة .
قال هذا أنطونيو وهو يخرج من جيبه لفافة من الورق فعد
له عشر دولارات، فابتسم قلب بترو لمرأى المال، ونسى أنه
ندم وتاب إلى الله .
— يجب أن تسرع فى العمل .
— سيتم بعد أسبوع .
— حسن جداً بعد أسبوع . إلى الملتقى .
فتصافح الطليانيان المدمران للكون . وخرج بياع التفاح راضياً
حتى على آفة الكون زوجة كنتى التى كانت تقشر البطاطا عند
الباب . فسلم عليها ، فردت السلام دون أن تنظر إليه .

ــ ما أجمل ابنك يا مسز كنتي. تعال إليّ يا كنتي الصغير. سأعطيك لعبة جديدة إذا كنت تقبلني .

وما كاد أنطونيو يقبله حتى وثبت الأم كاللبؤة عليه فانتشلت ابنها من بين يديه . إن السيدة كنتي تكره كاتالان كرهاً شديداً وتتشاءم فوق ذلك منه . ومن عجيب تشاؤمها أن ابنها وقع ذاك المساء فجرح فى وجهه ، فنسبت ذلك إلى قبلة أنطونيو . ولما سألت زوجها عما يريد قال : جاء يستدين بعضاً من المال . فصاحت قائلة : لا تعطه دولاراً واحداً . لا معاملة بيننا وبين كاتالان .

ولكن بتروكنتي ، وإن كان يحب امرأته ويعمل غالباً بنصيحتها ، لا يخلف وعده . وبينا كان يشتغل فى اليوم الثانى فى غرفته الخصوصية تعثر ابنه بصندوق فى الدكان فوقع وشج رأسه . فصاحت الأم مستجيرة بكل قديسي إيطاليا ، فخرج الأب كنتي يسب الشيطان وأعوانه فى الأرض جميعاً .

وهم فى تلك الحالة جاء إلياس نادر يشترى بعض الأغراض لبيته . فساعد الأب والأم فى تضميد جرح الصغير ، ثم اشترى من كنتي أشياء كثيرة وفيها خمسة صناديق من البيرا .

فقال بترو : ولماذا هذا الإسراف يا إلياس .

فقال إلياس : عرس بنتى يا بترو : لى ابنة وحيدة وهى عندى بما فى الدنيا . وسيكون عرسها لائقاً بها .

ــ وهل ترضى هى أن تقترن بأنطونيو كاتالان ؟ .

ــ لا . لا . نحن لم نعد أنطونيو بشىء . عريسها ابن بلدها السرجنت توفيق زيدون ويجب أن تحضر العرس يا بترو فى الأسبوع القادم . جئت خصوصاً أدعوك وإذا كنت لا تحضر أقتلك والله .

ــ سأحضر العرس . والله سأحضر .

وبعد أن خرج إلياس نادر من الدكان لبس بترو قبعته وراح يستطلع خبر أنطونيو ليخفف ما بدأ يخامره من الريب. فلما وصل إلى الدكان رآه واقفاً فى الباب كالمعتوه ، وهو ينظر إلى السيارة أمام بيت نادر ، السيارة التى جاء بها السرجنت زيدون ليخرج بسلمى إلى النزهة .

ــ ما بالك يا كاتالان ؟

فأجابه مبهوتا : لا شىء . لا شىء .

ــ هل علمت أن سلمى نادر ستقترن بابن بلادها السرجنت زيدون ؟

فهز أنطونيو كتفه ، ولعن نفسه باطناً لأنه لم يتمكن من إخفاء غمه واضطرابه . ثم قال وقد تأججت النار فجأة فى

عينيه : هل باشرت العمل ؟ عجل به عجل .

ـ سأعجل به يا أنطونيو.

وعاد بترو إلى بيته يضحك ويقول : ما أجمل العمل الذى تريد نسفه يا كاتالان .

وفى اليوم الثالث بعد هذه المقابلة مرض ابن كنتى بالحمى ، فنذرت أمه النذور للقديسين من أجله ، وهى تلعن أنطونيو كاتالان وتود أن تنظف الأرض منه. فشاركها زوجها بالصلوات واللعنات . وتجاوزها إلى التأملات . تأمل ما حدث لابنه الصغير يوم جاءه كاتالان بطلب من « الجمعية » . وفكر فى ما أصابه فى يوم كان يعمل ليلبى طلب الجمعية ، وها هوذا اليوم فريسة الحمى طريح الفراش . فسأل كنتى نفسه قائلا : أذلك لأنى قلت : يجب أن أبر بوعدى لكاتالان ؟ الله ينتقم منك يا كاتالان .

ثم خطر لكنتى خاطر فيه الكفارة عن ذنوبه كلها . فجاء فى آخر الأسبوع ، بعد أن زال الخطر عن صغيره إلى دكان أنطونيو بعلبة مختومة بالشمع الأحمر ، ودفعها إليه قائلا :

ـ هذا آخر ما أصنعه للجمعية . قد انتهيت من هذا العمل . أفهمت يا كاتالان ؟ انتهيت ، انتهيت تماماً . وإياك أن تفتح العلبة ، إن فى فتحها قضاء الغرض .

فقال كاتالان متهللا : أشكرك يا كنتى . وأشكرك ثانياً باسم الجمعية .

وفى ذلك اليوم كانت الأهبة للعروس قائمة فى بيت نادر ، فلبث أنطونيو فى دكانه ينتظر قدوم السرجنت زيدون لأنه لم يشأ أن يخص الفتاة وحدها بغضبه . ولما جاء السرجنت العريس استأجر أنطونيو رسولا وأعطاه العلبة قائلا : خذها بعد نصف ساعة إلى سلمى نادر وسلمها إياها يداً بيد . بعد نصف ساعة ثلاثين دقيقة .

وكان أنطونيو قد باع ثماره وحلواه كلها استعداداً لهذه الساعة السعيدة ، فأقفل الدكان وذهب تواً إلى محطة سكة الحديد . . . هاهنا تنتهى وظيفتنا وتبتدئ وظيفة رجال الشرطة.

لما وصلت العلبة إلى سلمى نادت والدها لتطلعه على ما فيها ، وهى تقول : هدية من أنطونيو . كنت دائماً أقول ، ولا أزال أقول ، هو رجل طيب القلب .

على أن والدها عندما همت بفتح العلبة وقفها قائلا : هؤلاء الطليان شياطين . قد يكون فيها ديناميت . أنا أفتحها خارج البيت .

وفى تلك الآونة ، قبل أن يصل إلياس نادر وهو يحمل العلبة إلى الخارج ، دخل اثنان من رجال الشرطة السريين

يوقفان باسم الشرع حفلة العرس .

ثم قال أحدهما مخاطبـاً رب البيت : وأين الهدايا التى جاءتكم ؟ .

فأشار إلياس إلى مائدة وقد وضعت عليها هدايا العرس .

ـ وهل جاءكم هدية من أنطونيو كاتالان ؟

ـ هاكها .

وقدم إلياس نادر العلبة وهو يتنفس الصعداء فاستلمها الشرطى متحذراً وهو يقول : اشكروا الله أنكم نجوتم من الهلاك جميعاً.

ـ ألم أقل لك يا سلمى إنه قد يكون فيها ديناميت ؟ ياخبيث ياكاتالان . ستنال جزاء ما اقترفت يداك . فالقضاء لا يرثى للمجرم ولا يحابى فى عدله .

وكان فى دائرة الشرطة مشهد آخر فى تلك الساعة له صلة بعرس سلمى نادر وبحبيبها السابق أنطونيو كاتالان .

وهاكم أنطونيو ، وهاكم صديقه كنتى أمام المدير . الأول يحترق كمداً ، ويتحفز انتقاماً ، وهو ينظر إلى ابن بلاده نظرات كأنها الخناجر. والثانى يضحك فى سره وهو هادئ النفس ، مطمئن البال .

وكيف وصل الاثنان إلى دائرة الشرطة ؟ وكيف علمت

الدائرة بما كاد يحل ببيت إلياس نادر من الدمار والهلاك ؟ هي الحلقة السرية في هذه القصة . ولكننا لا نكتم القارئ حتى أسرار من هم حراس الأمن العام ، وأمناء الهيئة الاجتماعية . يوم جاء أنطونيو إلى دكان بتروكنتي كان من حسن الاتفاق ، أو من سوء الاتفاق لأنطونيو أن جاء بعده أحد رجال الشرطة يزور صديقه القديم فلم يجده فاستقبلته زوجة الطلياني وأكرمت وفادته . إنها تعلم أن سعادتها الزوجية تتوقف على حسن صلتها بهؤلاء الناس .

وقد وعدت السيدة كنتي الشرطي عندما زار الدكان في اليوم التالي أن تساعده في استكشاف الغرض الغامض من زيارة أنطونيو لزوجها . وكان أن مرض ولدها كما أسلفنا القول فتشاءمت كما تشاءم زوجها بأنطونير ، وألحت عليه بأن يطلعها على الحقيقة بشأن زيارته . فأخبرها بنصها ولم يكذب : قد اشتريت له بعض المواد لصنع قنبلة صغيرة .

— للجمعية ؟ لبيت نادر ؟ لمن ؟ .

ها هنا وقف الرجل قائلا لإمرأته : ما تعودت أن أبوح بأسرار الجمعية .

أما المرأة فبادرت سراً إلى دائرة الشرطة تطلعهم على الخبر . وقد كتمت .أن زوجها هو صانع القنبلة .

بيد أن رجال الشرطة لا يجهلون تاريخ « اليد السوداء » في تلك المدينة فسارعوا إلى بيت نادر ليدفعوا عنه البلاء ، وألقوا القبض على أنطونيو فى محطة سكة الحديد ساعة كان يشترى تذكرة السفر . وكذلك على بترو كنتى المشهور بصنع القذائف والقنابل لجمعية « اليد السوداء » .

وها هما أمام المدير ، الواحد يضحك فى سره ، والآخر يود لو أن بيده تلك القنبلة فيقذف بها ذلك المكان متمثلا بقول ذلك الذى هدم الهيكل فى قديم الزمان : « عليّ وعلى أعدائى يا رب » .

وهاهوذا الشرطي وقد عاد من بيت نادر يحمل العلبة الجهنمية .

فعند ما رآها أنطونيو صاح كالمجنون : « هى علبتى ، هى تخصنى . أنا دفعت ثمنها . أعطونى إياها فأعلمكم كيف يكون العدل ، وكيف يكون الموت ».

قال هذا وهو يحاول الإفلات من أيدى الشرطة فألزموه مكانه .

ثم تكلم بتروكنتى فصدق مدير الشرطة الخبر . قص القصة كلها وختم كلامه قائلا : « افتحوا العلبة فتتأكدوا من صدق كلامى وإذا كنتم تخشون فتحها ، فأعطونى إياها ، واخرجوا من القاعة ، فأنا أفتحها وأتحمل عاقبة أمرها » .

فقال المدير : «لا نكلفك ذلك يا كنتى . فقد برهنت مرة على توبتك الصادقة . وأنا الآن أفتح العلبة بناء على ما قصصت .

قال ذلك وفض ختم العلبة ، فقطع الشريطة المربوطة بها ثم فتحها فإذا هى ملآنة من الأرز الذى يذرّونه فى تلك البلاد على العروسين تبركاً وتيمناً ، وعلى وجه العلبة المال الذى دفعه أنطونيو ، العشر دولارات . ومعها ورقة كتب عليها :

« يهنئك أنطونيو كاتالان ويرجو أن تقبلى منه هذه العشر الدولارات فتشترى بها هديتين الواحدة لك والثانية لزوجك » .

وكان أنطونيو فى أثناء ذلك غائصاً فى لجة الهواجس ، فرفع رأسه بعد أن سمع هذه الكلمات وخاطب بتروكنتى قائلا : ما أشرفك يا ابن بلادى ! وما أكرمك ، وما أعظم فضلك ! وأنا اليوم أتوب توبتك وأرجو أن أكون على شىء قليل من فضائلك فى المستقبل . إنى تائب أيها المدير ، تائب توبة خالصة صادقة . وبرهاناً على ذلك أترك هذه العلبة بين يديك لتصنع بها ما تشاء . ولكنى أتمنى إرسالها إلى صاحبتها .

وكانت الكلمة الأخيرة للعروس ، إذ عادت العلبة من دائرة الشرطة فى ذلك اليوم بعد الأكاليل إليها :

« ألم أقل إن أنطونيو كاتالان رجل طيب القلب ؟! » .

بقضاء و قدر

قصة سياسية رمزية

١

كان فى قديم الزمان ، فى بلاد هيروس ، مدينة تدعى « نبال » يحكم أحياءها الخمسة خمسة شيوخ مستقلون الواحد عن الآخر كل الاستقلال ، وكان الناس فى تلك الأحياء يعيشون متقاطعين ، متنابذين ، فيستهلك سكان كل حى أنفسهم — يستغل بعضهم بعضاً — ولا يعرفون من قواعد الحياة الاجتماعية غير قاعدة واحدة قديمة هى : الطاعة للكبير والعصا للصغير .

وكان الكبير فيهم ينشأ على ثلاثة أصناف من الحب : حب الذات ، وحب المال ، وحب الجاه . فصار كل صغير ، إذا ما كبر يقلد كباره الوجهاء حتى تأصلت فى جميع الناس طبائع الظلم والأثرة ، وسادت المصلحة الخاصة المصالح العامة كلها .

وبما أن كل حى من أحياء نبال كان مستقلا عن الآخر ، مقاطعاً له عملت فى أبنائه عوامل العزلة والأثرة، فحرموا فوائد المخالطة . ومنافع التضامن ، وتفشت فيهم ثلاثة أصناف من الفقر : الفقر المالى ، والفقر الأخلاقى ، والفقر الأدبى .

ندب الشيوخ ما صارت إليه أحوال رعاياهم المادية والمعنوية — ندبوها سرًّا فى قلوبهم .

ولكن بعض الناس شكوا حالهم صارخين صاخبين . وبعضهم قاموا يتهمون الشيوخ بما حل بهم ويطلبون الإصلاح . فاجتمع الشيوخ سرًّا ذات ليلة ، وبعد الصلاة والتأمل ، والمذاكرة فى المصالح المشتركة ، أدركوا أن سيادتهم تزول إذا هم سلموا بمطالب المصلحين وأدركوا إنهم لا يستطيعون أن يرحدوا سلطاتهم الخمس لأن كل واحد منهم طالب بالسيادة لنفسه ، متمسكاً بها . فقرروا لذلك أن يذكروا شعوبهم بالعقيدة المثبتة فى كتب الدين ويأمروهم بالعمل بها . وتلك العقيدة هى أن الشعوب تشقى وتسعد بقضاء وقدر .

عندما سمع الناس كلام الشيوخ طأطؤوا رؤوسهم طوعاً وحزناً . وراحوا يسترحمون الله . ولكن أفراداً فيهم أعطوا من الشجاعة والعقل أكثر من سواهم قاموا ينادون بخلع الشيوخ وبتأسيس حكم واحد فى مدينة نبال . وقد تبع هؤلاء الزعماء

فى كل حى جماعات من الناس ، فأعلنوا الثورة على الشيوخ ، فاشتعلت نارها اشتعالا متقطعاً يبدو حيناً لهيباً وحيناً دخاناً ، فيسطع النور تارة وطوراً يتلاشى ، ذلك لأن أهل نبال كانوا ينشدون الإخاء والمساواة، ويرغبون فى العدل والحرية . ولكنهم لفقرهم وضعفهم المادى والمعنوى لم يستطيعوا الجهاد المستمر فى سبيلها . فقالوا بعد وميض من النجاح فى دجى الفشل والقنوط : « الحق مع شيوخنا . إن بلاءنا وذلنا بقضاء وقدر »

٢

جاء فاتح من الشرق فاستولى على مدينة نبال فى بلاد هيروس. وولى عليها حاكماً واحداً فرفع الحواجز القديمة بين الأحياء ، وحث الناس على المخالطة ، والمشاركة ، والتعاون والتضامن — « كونوا إخواناً فتُثْرون وتسعدون » .

أطاع الناس حاكمهم الجديد . ولكنهم فى اتحادهم كانوا كالماء والزيت ، لا كالخمر والماء . ذلك أن حب الذات ، وحب المال ، وحب الجاه ، ناهيك بما تأصل فيهم من نفور

بعضهم من بعض ، وكره بعضهم لبعض . وتعصب بعضهم على بعض ، قد حالت كلها دون تبادل الثقة ، وصفاء النية ، وحسن الظن . وبكلمة أخرى ، قد كان الإدغام على دغل ، فدب بين الناس روح التنابذ والتخاذل ، ومشى الكبار على هام الصغار إلى أغراضهم الخاصة . بل ضجت حول العرش المكائد والأطماع فرأى الفاتح صوناً لنفسه ولعرشه أن يسود الشيوخ كما كانوا سائدين فى الماضى ، فقسم المدينة إلى أحياء وسعى فى إقامة التوازن بين آهاليها فقوى الضعيف على القوى حيناً ، وحيناً تملق للقوى دون الضعيف ، وكان فى أكثر الأحايين يغرى بعضهم ببعض .

قال الفاتح للشيوخ المستقلين المقيدين بالعرش : « الطاعة منكم لى تضمن الطاعة منهم لكم » . فصاغوا لأنفسهم قيوداً من ذهب ، وللناس قيوداً من حديد .

ظلت مدينة نبال ، فى بلاد هيروس ، بضعة قرون على هذه الحال . يستغل الشيوخ الشعب ويستغل الفاتح الشيوخ وكلهم ، وقد خيم عليهم الفقر والجهل والذل يقولون : « بقضاء وقدر » وكلهم يسترحمون الله .

٣

جاء الفاتح من الغرب فاستولى على مدينة نبال فى هيروس، وكان قد أرسل إليها رواده السود فعلّموا أبناءها لغته ، ثم جاءت بناته البيض يعلمنهم أساليبه فى الحب ، والسلوك ، وزينة العيش .

وقد علم الفاتح من رواده وبناته أن شعب نبال قد نشأ على ثلاثة أصناف من الحب : حب الذات، وحب المال، وحب الجاه ، فقال فى نفسه : هوذا شعب مثل شعبنا ، ولا يفل الحديد إلا الحديد .

لذلك باشر حكمه باسم المال وبه . فبذل منه بلا حساب فى مدينة نبال وبلاد هيروس ، فجاءه الشيوخ طائعين شاكرين ، وبيد كل واحد قيد ومفتاح : هوذا مفتاح السيادة ، يا صاحب الدولة ، وهوذا قيدها : فرق تسد، وابذل تدم .

ولكن هذا الفاتح الجديد يحب المال كما قلت حب أبناء

نبال له . فلم تمكنه شهوته هذه ، ولا مكنته خزانته ، من البذل الدائم . ما العمل إذن ؟ إن هناك قيداً غير ذاك الذى أشار به الشيوخ ، فقد استعمل المفتاح ، مفتاحهم واستعاض عن القيد بأن أقام الحواجز القديمة بين الأحياء .

ثم جاء بجنوده البيض والسود والصفر يعزز حكمه ، فنشأت النفرة فى قلوب الناس فقام من يحسنون منهم الكلام ينتقدون الفاتح ويطعنون عليه . وقام كذلك الشيوخ لأنه بدل أن يسترضيهم بالمال فى الأقل شرع يتجهمهم ، ويشتمهم ، ويهددهم بجنوده السود . فنهض فى بعض الأحياء الناس عليه ؛ واشتعلت فى بلاد هيروس للمرة العاشرة أو العشرين نيران الثورة .

وكان الناس فى نبال يحبذونها فى قلوبهم ويلعنونها بألسنتهم . بيد أن ذلك لم يخف على الفاتح فكرههم ، واحتقرهم ، وعاملهم معاملة السيد للعبيد .

ولكن الشيوخ الذين يمتصون كالعلق دم الشعب ظلوا يتملقون الفاتح ويتزلفون له . أما هو فلأنه أبغضهم جميعاً — ولا يستقيم مع البغض عمل — نسى تقاليد أمته المجيدة ، وأمسى لا يحسن إدارة شؤون بلاد هيروس ومدينة نبال ، فتفشت بدوائر الحكومة كل أنواع الظلم والفساد .

استمرت هذه الحال بضع سنين حسبها الناس بضعة قرون ، وهم يئنون ، ويشكون ، ويقولون مع شيوخهم : « بقضاء وقدر » ثم يسترحمون الله .

٤

ضرب البؤس فى نبال أطنابه ، وأرسل الغل فى كل ناحية أصواريه ، فأمسى الفاتح بين الاثنين حائراً فى أمره هلعاً متضعضعاً . وقد خطر له أن يغير خطته وسلوكه الإدارى ، بل سلوكه الشخصى أيضاً ، علّه بالحب والحكمة والعدل يظفر بطاعة أهل هيروس وبرضاء أهل نبال . فيوفر فى الأقل ما ينفقه على جنوده السود وينجو من الغل الذى يغلى فى صدور الناس .

ولكن الناس، وقد سبق الغل إلى قلوبهم فتوطنها — احتلها — أمسوا لا يثقون بهذا الفاتح ولا يحسنون الظن به . ولا يصدقون ما يقول بل كانت لهم الجرأة أن يقولوا له : « إننا لا نصدقك ولا نؤمن بك » .

ومع ذلك فقد أسس الفاتح فى مدينة نبال حكومة دستورية مستقلة تعززها المجالس النيابية والوزارات وتحميها الجندرمة والسيارات ولها فوق ذلك رايتان ولحنان وطنيان . فقال الناس : « هى مكيدة . فهو يريد أن يزيد فقرنا فقراً . فندخل رؤوسنا فى ربقته صاغرين » ؟ .

وأقام فى بلاد هيروس حاكماً وطنيًّا واحداً ، فوحد الأحياء، وعيّن الوزراء من الأدباء والشعراء . وأسس المعاهد العلمية والصناعية ، ثم قطع الأشجار ليوسع الطرق للدفاع عن الوطن ، وضحى بجنوده الغرباء فى هذا السبيـــل فقال الناس : غربى خبيث ، لطيف الحديث يذبح إخواننا دفاعاً عنا ، ويقدم لنا كأساً من الحنظل تطفو على وجهها حبب شبيهة بحبب الشمبانيا . غربى خبيث .

رفّت سمعة هذا الغربى الفاتح كالغراب فى بلاد هيروس، وفى مدينة نبال ، فانتشرت منها أنواع السموم . فقحلت حقول الجميل والمعروف وأظلمت مساكن حسن الظن . وعندما عم البلاء واستولى اليأس والغم حتى على قلوب الشيوخ قام أحد الحكماء منهم مواسياً معزياً فقال : « هو مثل كل الفاتحين ، ونحن مثل كل المستضعفين الذين يقيمون فى طريق الفاتحين — إن بلاءنا بقضاء وقدر » .

٥

سمع الفاتح هذه الكلمة فأنكرها لأول.وهلة، ثم ذكرها ورددها مراراً فى نفسه . وكان من أمره أنه عاد إلى بلاده يستشير كبار قومه فقال أحد الشيوخ هنالك : وهل نحن فى هيروس للتجارة والكسب أم للخسارة والذلة؟ هذا شعب مثلنا محب للمال والجاه ومحب كثيراً لنفسه ، فلا يمكننا أن نستولى عليه ، وعلى موارد ثروته ، إلا فى تمليقنا له ، وتمجيدنا لأجداده ؟

وقال شيخ آخر : إنما نحن فى هيروس لنعزز مركزنا البحرى ونتولى باباً إلى الشرق .

وقال ثالث : ولكن أصحاب ذاك الباب أتعبوا رأسنا . دوّخونا فيجب علينا استرضاؤهم وخير الوسائل هى أن نرسل بناتنا إلى تلك البلاد فنصاهر أهلها ونتخذهم لنا أخدانا وأعواناً .

وقال الرابع : وهل يستوى السيد والعبد ؟ وهل يستوى العالم والجاهل ؟ أتريد أن نصاهر نحن أرباب التمدن من

لا يعرفون من المدنية غير عنوانها ؟ إنى أرى أن نرسل إليهم الراقصات والقيان من بناتنا ونشفعهن بالشمبانيا . لاعبوا القلوب فتذهب العيوب . خدروا العقول فتستقيم الميول .

ثم انبرى للكلام أحد المعارضين هناك فقال : لا أمل لنا فى هيروس ونبال ولا راحة بال إذا سلكتم هذا المسلك المشين . لا أمل لنا فى تلك البلاد إلا إذا أعطينا أهلها أحسن ما عندنا من النظم ، ومن العلوم ، ومن الأخلاق . وإذا كنا لا نستطيع ذلك فعلينا أن نخرج منها فى الحال .

ضج الشيوخ فصاحوا بالرجل صوتاً واحداً : عدو الوطن خائن الأمة . وأخرجوه من المجلس .

ثم أقروا بالإجماع رأى التخدير . وعاد الفاتح إلى هيروس ونبال يقيم فيهما معالم السرور ويعبد الطرق إلى اللذات . فقال بعض الشبان الذين يدعون الحكمة ويؤثرون عليها المال وظلاً من الجمال : قد صدق شيوخنا . لا بد من هذا الفاتح مهما كان أمره . إن بلاءنا حقاً « بقضاء وقدر ! ! »

٦

طوى الزمان أيامه ولياليه . وكانت نبال تزداد فقراً ، وهيروس تزداد غلا ، وقد تكاثرت فى البلاد الحسان والمسارح والحانات ، سكرت نبال فظنت نفسها أخت قارون ، وتخدرت هيروس فخيل إليها أنها ربة التاج والصولجان .

وقد رأى الفاتح أن يستمر فى التخدير فأحيا لأهل نبال ليلة راقصة فى يخته الراسى بميناء البلد .

ليلة راقصة فى يخت الفاتح العظيم ، إنه لتعطف جميل يشمل الأوانس والشبان، ولا يزدريه الشيوخ. ولكن الرياح لا تجرى بما تشتهى السفن دائماً . ففى الليلة السابقة لليلة اليخت الراقصة شبت فى مخازن نبال النار . فاندلعت ألسنتها فى كل جانب ، والتهمت قسماً وافراً من ثروة المدينة .

وعندما انبلج الفجر فأشرقت الشمس على ركام سوداء تحت سقوف هاوية وبين جدران متهدمة ، اندلعت ألسن

الظن والغل . فقال الناس : «غربى خبيث ، يبسم لنا في النهار ويحرق مدينتنا في الليل . غربى أثيم يسقينا الشمبانيا لينسينا البنزين» .

غضب الفاتح المسكين غضبة البرىء وقال : «أقسم بالله إنها بقضاء وقدر» .

٧

أنير اليخت بالكهربا ، وعزفت فيه الموسيقى واصطف الخدم لاستقبال الناس . فتقاطرت إليه الأوانس والشبان من مدينة نبال . وجاء كذلك كبار القوم يتقدمهن نساؤهم وبناتهم.

دارت رحى السرور التى تطحن القلوب والعقول ثم دوت كالبنادق زجاجات الشمبانيا فثمل الناس وهم على رمية نبل من الحريق الذى كان لا يزال يرسل إلى السماء من أنفاسه المتقطعة لهيباً ودخاناً .

استمر الرقص حتى انبلج الفجر على تلك الركام والطاول

فاستفاق إذ ذاك الفاتح وقد اكفهر منه الجبين ، استفاق من ثمله فأحس بما يلتهب كذلك فى قلوب النباليين إخوان الراقصين والراقصات ، وقد قال فى نفسه : لو أجلنا الليلة الراقصة ! نعم كان من الواجب أن نؤجلها .

ثم قال يهون الأمر : « ولكن كبار نبال لم يفكروا فى ذلك . فقد بادروا إلى الحفلة حتى رئيسهم الأكبر . فإذا كانوا هم لا يشعرون بالنكبة فهل ألام أنا الأجنبى ؟ »

ولكنه عند ما سمع فى اليوم التالى صوت المدينة المنكوبة تردده صحافتها ، وتجارها ، ونساؤها ، ذكر تلك الكلمة النبالية الهيروسية المشهورة فقال : وهل كان يحضر شبانكم وبناتكم وشيوخكم الحفلة الراقصة لو لم يكونوا متيقنين مثلى أن الحريق كان بقضاء وقدر ؟

* * *

بقضاء وقدر ! أجل . وأنت هناك يا أخى بقضاء وقدر ، وإن القضاء ليسعى بينك وبين أهل هيروس ونبال ، والقدر يهدم ما تبنيه ويبنونه من الآمال .

صوت هادئ بارد خافت ، له مع ذلك روعة السؤدد والعظمة ، تموج إلى مسمع الفاتح من ناحية الغرب . فسمعه كذلك يقول :

١١٨

أيها الزميل الكريم ، والفاتح العظيم مهما كان من حسن ظنك ، وصفاء نيتك وشريف مقاصدك ، فإن شهرة سوداء تقدمت ما تأخر من أعمالك ، وإن ما فيه تسويد صحيفتك وتشويه سمعتك لمثل مافيه نكبات هيروس ونبال : بقضاء وقدر !

فهرست


اقرأ
السلسلة الشهرية الوحيدة التي
تعمل منذ تسع سنوات على تيسير
المطالعة الممتعة النافعة وادخالها
إلى كل منزل في كل مدينة وقرية .
وعنوانها خير ما يوجه إلى الأفراد
والجماعات ، بل هو خير ما وجه
إلى الإنسان منذ تحضر إلى الآن.
فهي :
• نواة صالحة لإنشاء مكتبة زهيدة الثمن كبيرة الفائدة في كل منزل .
• أشبه بجامعة شعبية بما تقدمه من مختلف ألوان الثقافة.
• جديرة بمطالعة الشباب والشيوخ الذين يسعون إلى متابعة العلم والمعرفة
ثمن النسخة ٥ قروش • الاشتراك السنوي ٦٠ قرشا
تصدرها
دار المعارف بمصر
وهي الدار التي قضت ٦٠ عاما
في خدمة الكتاب العربي وتعميم نشره
المركز الرئيسي
٥ شارع مسبيرو بالقاهرة
مصنع من ثقافة وضياء — كل قطر يعشو إلى نيرانه
«على الجارم بك»